التربية العاطفية للأبناء

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

دار الخزانة

الكويت:

٠٠٩٦٥ ٥٥٩٥٧١٠٣ - ٠٠٩٦٥ ٩٠٩٠٩٢١١

المملكة العربية السعودية:

٠٠٩٦٦٥٦٢٠٠٠٧٣٣ - ٠٠٩٦٦٥٦٨٤٨٠٠١٩

dar.alkhezanah@gmail.com

يُنصح به للآباء والأمهات والأخصائيين والمعلمين والمعلمات

التربية العاطفية للأبناء

الدكتور سالم العجمي

عضو هيئة التدريس بجامعة الكويت

دار الخزانة

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله وَحدَه، والصَّلاة والسَّلام على رسُوله وعَبدِه، نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصَحْبِه، وسَلم تَسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعد:

فإنَّ الأبناء هبة من الله، تبتهج بهم الحياة، وتستأنس بهم القلوب، وتستلذ بهم النفوس، وهذه فطرة جعلها الله في قلوب الخلق، ولا يعلم حقيقتها إلا من جرَّب الأبوة أو الأمومة، فإذا أصبح في هذه الحال علم مقدار هذه النعمة، ولا أدلَّ على ذلك من قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].

ومن جرَّب الحرمان علم معنى الفَقْد، ومن ابتُلِيَ بفراق لا لقاء بعده علم مقدار الوحشة، ومن أجل ذلك تجد من تأخَّر إنجابه وقد سارع إلى طَرْق أبواب الأطباء والمعالجين، طمعًا في أن يُرزق بابنٍ أو ابنة يكونان له أُنْسًا، ليفيض بعد ذلك رقة وحنانًا.

ومن أجل هؤلاء الأبناء ترى كثيرًا من الأزواج وقد عظم صبره على شريكه رغم أنه لا يطيق العيش معه، خوفًا على ضياع الأبناء وتشتتهم، فالأبناء يُمثِّلون قوة قادرة على تغيير الواقع والتحكم في النفسيات، وإعادة ترتيب البيوت، وإن كان ذلك بصورة غير مباشرة، فقط لدخولهم ضمن أفراد الأسرة، فوجودهم سبب لتغيير واقع مَن حولهم وطريقة حياتهم.

ومن أجل أن يكتمل الفرح بهؤلاء الأبناء، لابدَّ من بذل الجهد حتى يكونوا صالحين حقًّا، فعلى قدر الصلاح تكون الثمرة، وعلى قدر الجهد يُحمَد السعي.

وكتاب: «**التربية العاطفية للأبناء**» هذا، محاولة متواضعة تنضمُّ إلى عالم المؤلفات في تربية الأبناء، رَجَوتُ من خلالها أن أُساهم في الكشف عن السبل المُعَزِّزة للعلاقة بين الوالدين والأبناء، والتي ينتج عنها بيوتٌ هادئة، وحياة هانئة.

ومن المهم ذكره أنني في هذا الكتاب غالبًا ما أستعمل لفظ «الوالد»، وأعني فيه «الأب والأم» على حدٍّ سواء؛ لأنهما شريكان في التربية، فإذا استدعى الشأن تخصيص أحدهما

بأمر فإنِّي أعبر عن ذلك بلفظ «الأب»، أو «الأم»، وقد يُفهم من سياق الحديث أنَّ المقصود في هذا المقام الأب أو الأم، نظرًا لارتباط ما ذُكر بشخصه.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكتب له القبول والبركة.

كتبه

الدُّكتور سالم العجمي

عضو هيئة التدريس بجامعة الكويت

الكويت في ٢٠١٩/١٠/١٧ م

بين يَدَي هذا الكتاب

منذ فترة ليست بالقصيرة راودتني فكرة الكتابة عن تربية الأبناء، وتطورت هذه الفكرة لديَّ حتى صارت بالنسبة إليَّ حُلمًا أسعى إلى تحقيقه، وأنتظر الوقت المناسب لأشرع في الكتابة حوله ليصبح واقعًا بعد أن كان من عِداد الأمنيات.

فهذا الباب عملٌ أحبه وأميل إليه، وقد مَنَّ الله سبحانه عليَّ لسنوات عدة ووفَّقني لإقامة كثير من الندوات والدورات التدريبية والمحاضرات المتعلقة في هذا المجال، وفي بلدان مُختلفة ومجتمعات شتى، وهذا مما يساعد الباحث على اكتشاف الفوارق بين الشخصيات، وكيفية معالجة كل فريق على ضوء ما يحيط به من ظروف تجعله مختلفًا عن غيره في طريقة التعامل مع شخصيته .

ثم إنني عززتُ ذلك بقراءة عددٍ غير قليل من الكتب

المتعلقة في أبواب التربية، مما كتبه مؤلفون متخصصون في هذا المجال، من المسلمين وغير المسلمين، والعرب وغير العرب، ومن خلال ذلك رسمت خطوطًا عريضة أسلكها للوصول إلى هذا الباب حتى أُتقِنَهُ، لكن عمدت أثناء الكتابة إلى الابتعاد عن الطرق والوسائل التي لا تليق بمجتمعاتنا.

ثم إني لما شرعت بالكتابة في هذا الأمر المهم آثَرتُ أن أدوِّنه بالطريقة العاطفية الوجدانية، حيث تعكس هذه الطريقة ما يجده الإنسان في نفسه من أحاسيس ومشاعر وانفعالاتٍ عقلية ونفسية، وقد دفعني إلى ذلك النظر في طبيعة العلاقة بين المُربِّي (الأم والأب)، والمُرَبَّىٰ وهو (الابن والابنة)، فهي علاقة من نوع خاصٍّ تربط بينها العاطفة إلى أبعد الحدود، أو على الأقل يُفترض أن يكون ذلك، بل إن شئت قل: إن مدار التربية الناجحة يقوم على العاطفة حتى لو تخللها شيءٌ من القسوة أو التأديب، فالتربية بلا عاطفة تربية فاشلة، مُقَطَّعة الأطراف، ضعيفة النتائج.

ولو أردت معرفة أثر العاطفة في التربية، ودورها العظيم

في ذلك، فأمعن النظر في تحمُّل كثير من الآباء لسوء تصرفات الأبناء، وربما يعاقبونهم أو يؤدبونهم، وإنما الذي يدفعهم إلى ذلك هو العاطفة وليس إرادة إهلاك الابن.

على أنني وإن كنت أحاول من خلال هذا الكتاب أن أبقى محافظًا على طريقتي التي رسمتها وذلك بالكتابة بأسلوبٍ عاطفي وجداني؛ لأصل إلى هدفي الذي آمُلُ أن أحققه من خلال هذه الكتابة، إلا أن ذلك لم يمنعني من تضمينها القواعد التربوية، والنتائج العلمية المستنبطة من دراساتٍ نفسية، وتجارب ميدانية طويلة قام بها ذوو الاختصاص، لكن أيضًا بصياغة عاطفية أحاول من خلالها الوصول إلى قلب المُتَلقِّي، وذلك لقناعتي الشخصية أنه من غير المناسب أن يُصاغ هذا الموضوع بأسلوبٍ علميٍّ بحت يغشاه الجمود، ويعتري قارئه الملل، بل لابدَّ أن يكون ارتكاز الكتابة حوله مبنيًّا على مخاطبة الوجدان والمشاعر.

ثم إنني جعلت هذا الكتاب مُدَعمًا بنصوص الكتاب والسنة، التي لم تترك شيئًا ينفع الناس في أمر **دينهم ودُنياهم**

إلا بيَّنَته لهم، إما بالخصوص وإما بالعموم، حيث يُستنبط من النصوص العامة.

ومن الجدير بالذكر أنَّني حينما استعرضت كُتبًا ليست بالقليلة لكُتَّاب أجانب من غير المسلمين، وهم من الروَّاد القادة في هذا العلم التربوي، وجدتُ أنهم كثيرًا ما يذكرون بعض القواعد التي تؤدي إلى نجاح العملية التربوية، وبالرجوع إلى نصوص السنة النبوية، وجدت أنَّ هذه القواعد التي يدورون حولها، ويجعلونها من أهم قواعد التربية، قد جاء ذكرها أو الإشارة إليها في سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فأكثر هذه الكتب مثلًا كانت تبرز دور القدوة، والعاطفة، وطرق التأديب، والهدف منها، إلى غير ذلك من القواعد، وبالنظر إلى نصوص السنة النبوية تجد ذلك مسطورًا فيها، مُبَيَّنًا بأتمِّ بيانٍ وأجمل عبارة، وصدق ربنا الكريم القائل: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل:٨٩].

ولا يفوتني هنا الإشارة إلى أنه لا مانع أن يستفيد الباحث والمتخصص من دراسات المتخصصين إذا كانت مكتوبة

على وَفْقِ الواقع الموجود، وليس الخيال المأمول، مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار أن بعض الأمثلة المطبقة على القواعد التربوية وبعض أنواع الطرق التي يذكرها الكُتَّاب الأجانب المُتخصصون لا تصلح لواقعنا المسلم، فلابدَّ حين التعامل مع هذه الكتب -إن احتجنا إليها ولم نجد بديلًا عنها- أن نقوم بعملية تنقيح قبل تلقيها بمبدأ التسليم المطلق، فمن خلال استعراضي لمجموعة من هذه الكتب التي استفدت منها لأنها كتابات علماء متخصصين، تبيَّن لي خطأ بعض المدربين في مجتمعنا، حيث يظهر لبعضهم بين فترة وفترة شطحات عظيمة، وتجاوزات جَسيمة، ولعل السبب في ذلك أن بعضهم يقرأ هذه الكتب بمبدأ التسليم المطلق، ثم ينقل للناس ما تلقاه منها دون مناقشة، خصوصًا إذا كان كاتبه مرموقًا وذا منزلة في تخصصه، ومن هنا يخوض هذا المدرِّب فيما لا يحسن، ويبرز في طرحه الخَلل، ويظهر التناقض في طريقته، كما أنَّ من أعظم الأسباب المؤدية إلى ذلك أنَّ كثيرًا من المدرِّبين ليس له قدرة على الاطلاع على نصوص الشريعة ولو من باب الثقافة العامة، ويجتمع إلى جانب ذلك فتنته

بالاسم الأجنبي، فيحاول تقليده ومتابعته في كل ما ذكر من القواعد التربوية والنفسية دون تمحيص أو عرض على البيئة التي يعيش فيها.

والتربوي الناجح، والباحث المتميِّز هو الذي ينظر في توظيف هذه القواعد التربوية على الواقع الذي يعالجه ويأمل له التميز والنجاح، وليس مجرد ترديد بعض القواعد وإن كانت مخالفةً لشريحة المتلقين، فتظهر النتائج بعد ذلك هزيلة ضعيفة، والآثار سلبية؛ بل قُل: **ضارة**.

ولعل أعظم ما يفيد المعلمين والمدربين الذين يأملون نجاح العملية التربوية: أن يضيفوا إلى ما يقرءون ويُدرِّسون الجَانبَ العمليَّ والتجاربَ الشخصية التي مَرُّوا بها؛ لأنه سيسهل عليهم بعد ذلك ذكر الأمثلة من نفس الواقع الذي يعيشون فيه، ويقارنون الشخصيات المتشابهة فيسهل عليهم العلاج، وتكون طريقتهم أقرب إلى قلوب الناس، وهذا هو الذي لابدَّ أن يسعى إليه الكاتب والمدرِّب والمربي، **أن ينظروا إلى ما يُصلح المجتمع فيسهموا في ذلك**؛ لأن ثمرة

ذلك تعود على الجميع، ولا يكون الهَمُّ هو الغرض المادِّي البَحْت، أو كثرة الاطلاع المُجَرد، فإنَّ تعليم الناس باب عظيم من أبواب الخير والأجر.

وعن تجربتي الخاصة أتحَدَّث، فإنني كنت لا أكاد أستطيع أن أصف مقدار شُعوري بالسعادة التي كنت أجدها حين إقامتي للدورات التدريبية والمحاضرات في تربية الأبناء، وأحمدُ الله دائمًا وأبدًا أن يَسَّر لي سلوك هذا الطريق بمَنِّه وكرَمِهِ، وفتح لي هذه الأبواب المؤدية إلى القلوب، وإنما كان دافع هذه السعادة هو أمنياتي بأن أصحِّح أفكار شريحةٍ ما، وأن أسهم بحلول مشاكل الآخرين، واحتساب ذلك عند الله عَزَّوَجَلَّ، فوجدت ذلك بابًا دعويًّا مهمًّا؛ لأن الناس يتلمَّسون بشغف ويريدون من يُحِسُّ بهم، ويستشعر همومهم ومعاناتهم، كما أنَّ طرق هذا الباب فيه إشباع للعاطفة الداخلية في الرغبة في الخير، ومحبة مساعدة الآخرين، ورؤية آثار ذلك على أرض الواقع: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

هذا ومما يجدُرُ التنبيه عليه: أن ما يذكره الكُتَّاب في هذا

الباب إنما هي قواعد تساعد على نجاح العملية التربوية، وقد تتوفر للمرء جميع أسباب ومقوِّمات التربية، ومع ذلك تجده لا ينجح في حياته التربوية، وهذا لا يعني أنه فاشل في طريقته، ولكن حتى يعرف المرء مقدار حاجته لله سبحانه، وفقره إليه، فمع جَمْعِك لأسبابِ نجاح عملٍ ما تُوقن بالتالي أن التوفيق بيد الله سبحانه، فإن لم يُمِدَّك بعون من عنده فقد جانبت أسباب النجاح، لكن لا يعدم المرء أن يسعى في بذل أسباب النجاح، ويكثر طَرْق الباب، فمن داوم قرع الباب كان حريًّا أن يُفتح له .

وهَأَنَذَا وغيري من المختصين ربما لا نكون قد حققنا أهدافنا من خلال أبنائنا، وإن كنت مهتمًا بالجانب التربوي، وهذا مما يجعلنا نُوقِن أن ما نذكره في مؤلفاتنا التربوية من قواعد، لا يعدو كونه أسبابًا، والأمر لله من قبلُ ومن بعدُ، فإن شاء الله أثمَرَ الزرعُ وأينَع، وإن شاء لم يَنبُت ولم يكن له ثَمرة.

ثم إن عدم تحقيق الأهداف لا يعني الفَشل؛ لأن الأهداف التي نسعى إلى تحقيقها ليس لها منتهى، ولا تقف عند نقطة،

ويكفي في نهاية الأمر أن تكسب رضاك عن نفسك أنك قمت بما هو مطلوب منك من خلال العمل على إيجاد تُربَة حسنة، وإقامة قواعد سليمة حين يرجع إليها ابنك أو من أراد أن ينتفع بك، سيجد أرضية صُلْبَة يستطيع أن يقف عليها، ومحطة يستطيع أن ينطلق منها، وربما تتوفر لديه بعض الأمور المحيطة التي تساعده على أن ينجح ويثمر، في الوقت الذي لم تتيسر لك أنت نفس الأسباب التي تعينك على نيل مرادك.

وهذا مما يلفت انتباهنا على أن ما يسطره الكُتَّاب والمستشارون والاختصاصيون في باب تربية الأبناء هو وليد تجارب وخبرات، لكن مع ذلك تبقى قواعد عامة، لا يلزم بالضرورة أن تُجرَّب كلها على الابن خلال مراحل التربية، ويبقى الدور الأعظم على المربِّي أيًّا كان أن يختار الطريقة التي تناسب ابنه أو مَن تحتَ يده.

صحيح أن الكتَّاب يقومون بتقديم خدمة عظيمة للمُربِّي الذي يريد أن ينجح في مهمته، من خلال تجاربهم وتطبيقاتهم ودوراتهم التدريبية التي قاموا بها على مدى سنوات كثيرة من

العمل المتواصل والجهد الدءوب، لكن لابدَّ أن يكون لمُباشِر التربية دورٌ في التطبيق، وأنه وبالرغم من انتفاعه بهذه الكتابات لا ينبغي له أن يهمل تجاربه الخاصة وإفرازات المجتمع الذي يعيش فيه، فإن هذا كفيل بأن يُقَوِّي دوره، وربما يعطيه قدرًا كبيرًا من الحُنْكَة في التعامل مع أبنائه، وعلى أقل تقدير يجب النظر إلى هذه المؤلفات التي بُذل فيها جهد لا يُستهان به أنها مُدرِّبة للذهن، مُلَيِّنة للطبع، حتى يكون هادئًا يسهل عليه تلقي اختلاف الطباع وفروقات المشاعر، فيستطيع العمل من خلال ذلك.

لماذا نهتم بتربية الأبناء؟

إن الاهتمام بتربية الأبناء ليس لغاية مجردة، أو أنه عمل وظيفي يجب على المرء أن يؤديه على الوجه الأكمل دون خلل، لا؛ بل الأمر أعظم من ذلك وأبعد مدى، فالأمر يعني أن هناك مستقبلًا مشرقًا ينتظرنا إن أحسنَّا سلوك الطريق، والتمسنا الأسباب المؤدية إلى النجاح، وشعورًا بالاغتباط حينما نرى فلذات الأكباد وقد تجاوزوا مراحل الحياة الغامضة حتى بلغوا المرافئ الآمنة، وابتعدوا عن مواطن العَطَب إلى أماكن السلامة، فنفرح بوصولهم آمنين، ونغتبط لرؤيتهم ناجحين، يعرفون التعامل مع الأحداث، ويُحسِنُون معالجة الوقائع.

إنَّ القيام بمَهامِّ التربية قيامًا جيدًا يعطي دافعًا للطفل، ويُهدِّئ الضغط والشدة عن الأبوين أو يُزيلهما، كما أنَّ التربية هي مملكة الجد والجدة والأعمام والعَمَّات والمستشارين والأساتذة،

وكل من يحب الطفل ويُكَرِّس حياته من أجله[1].

جميل أن نعود إلى البيت دائمًا وقد وضعنا أطفالنا في المقام الأول، وأن نجعلهم يشعرون من خلال ما نقوله ونفعله بأنهم في قمة أولوياتنا، يجب أن نفهم أن الالتزام هو أمثل تعبير عن الحُب، كما يجب أن نذكِّر أطفالنا باستمرار بحبنا ونُشعِرُهم بالتزامنا تجاههم، وولائنا لهم.

يجب أن نستطيب وجودنا في المنزل ونستمتع به بالمُقارنة مع وجودنا في أي مكان آخر[2].

هذا، وإن هناك أمورًا تجعل المرء شديد الاهتمام بتربية أبنائه، فيقوم بهذه المهمة وهو في غاية السعادة بالرغم مما يعتريها من المشقة والمُعَوِّقات، طمعًا في الحصول على ثمرة عمله، وحصيلة جهده ومثابرته:

أولًا: حين يوقن المرء أن هذا الابن قطعة منه، وانعكاس لشخصه، فإنَّ ذلك مما يدعوه لأن يجتهد أعظم الاجتهاد في

---

(١) انظر: «بناء شخصية الأطفال»، تأليف: ليندا ورتشاردير، (ص١٩).

(٢) انظر: «بناء شخصية الأطفال» (ص٢٨).

إحسان تربيته، وتقويم سلوكه، وأن يحقق فيه من الأهداف ما كان يأمل أن يحققه في نفسه لكنها فاتَتْه، أو أنه كان قادرًا على تحقيقها لكن حالت دونها الحوائل.

فينبغي أن يجعل الوالد هذه النظرة من مُنطلقاته نحو تربية أبنائه، فالابن امتداد للأب والأم، ومن المعلوم فطريًّا أن المرء لا يحب أن يتفوَّق عليه أحدٌ في بلوغِ هدفٍ إلا ابنه، فتجده دائمًا يحب أن يراه أفضل منه، وأن يرى فيه ما لم يره في نفسه، وأن يُحَقق من خلاله الأهداف التي لم يستطع تحقيقها، أو قصرت عنها همته، أو لم تتوفر له الظروف المحيطة التي تساعده على الوصول إلى ما يريد، وربما تُلخِّص هذه الأبيات شعور الأب نحو ابنه، وكيف ينظُرُ إليه وما يُمثِّله بالنسبة له:

إنَّ فِي عَينَيكَ تَبدُو صُورَتِي ... يَا صَغِيري فَأَرَى فِيكَ أَنَا
وأرَى فِيكَ حيَاتِي كُلَّهَا ... مِن تَباريحَ وشَجوٍ ومُنَى
وأرَى دُنيَايَ فيكَ ابتدَأَت ... مِن جَديدٍ بِاخضِرَارٍ وسَنَا
فَإذَا وَلَّى زمانِي وانطَوَى ... بِكَ إِنِّي قَد مَدَدْتُ الزَّمَنَا[1]

(١) «ديوان الشاعر محمد أحمد المشاري» (ص٢٧٢).

ثانيًا: من المعلوم أن الأبناء زينة الحياة، يستأنس بهم المرء في صغرهم، ويملؤون حياته في كبرهم، ويُعينونه على الإشباع العاطفي والنفسي المُتمَثِّل في حاجة المرء إلى الاجتماع، ويَسُدُّون الفراغ القلبي الذي يحتاج كل شخصٍ إلى مَلْئِهِ، ولا يملؤه إلا صنف واحد من البشرية وهم الأبناء، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦]، فمعهم تطوي المراحل، وتبلغ الغاية، وتتشبع من العاطفة التي كلما كبرت سنك كنتَ إليها أحوج، ولكن لن تصل إلى هذه الأهداف إلا بأبناء قد هُذِّبوا ورُبُّوا تربية ناجحة، فعَظُمَت بهم الفرحة، وكبر بهم الأنس.

ثالثًا: صلاح الأبناء وتحسين تربيتهم، تحقيقٌ للفطرة القابعة في قلب كلِّ أحد، حيث يحب أن يكون ابنه مقدَّمًا، سابقًا لأقرانه، متميزًا عن أصحابه، فيزداد الوالد به فخرًا، وينتشي فرحًا أن حقق ابنه هذه المنزلة، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد:٢٠].

وقد جاء في السنة النبوية ما يؤيد هذا المعنى من الفرح

بتقدم الابن وظهور تميزه ونجابته، فقد جاء في حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن من الشجَر شَجرَة لا يسقط ورقُها، وإنها مثل المُسلم، فحدِّثوني مَا هي؟**» فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا بها، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنهَا النَّخلَةُ**».

فحدثتُ أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قُلتَها أحب إليَّ من أن يكون لي كذا وكذا[1].

فقولُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأن تكون قلتها أحَب إليَّ من كذا وكذا»، فيه بيان لما طبع عليه الإنسان من محبة ظهور نجابة ابنه وفضيلته في الفَهْم من صِغَرِهِ، وقد كانت العرب تقول: «مَن أدَّب ابنَهُ أرغَمَ أنفَ عَدُوِّه»، وذلك لأنَّ هذا الشيء ميدان للمفاخرة، وبحسن التربية يتميز الشخص عن غيره، ويكسب من محاسن الصفات ما فات على الآخرين كسبه، ويحقق من الثمرات ما يكون سببًا في رفعته والرجوع على مُرَبيه بالثناء.

---

(١) رواه البخاري (٦١٢٢)، ومسلم (٢٨١١).

رابعًا: إذا أحسنت تربية الابن فقد شققت له الطريق، وميَّزتَ له علامات السير، حتى يصل إلى منتهى الطريق الذي خططته له، ويفرح حين بلوغه، ويشكرك على أن بلغت به هذا المبلغ، وكلما كبر سنه ورأى في نفسه نجاح شخصه، علم مقدار الفضل الذي قدمته له، وشديد العناء والجهد الذي بذلته من أجل أن يصل إلى هذا المقام، وليس المقام مقام ثروة، أو عيشٍ رغد، بقدر ما هو أنك علمته كيف يعيش متزنًا في عالم متلاطم الأمواج، متباعد الآراء، مختلف الأفكار والاتجاهات.

ومع ذلك فأنت مع اجتهادك في تحسين تربيته، سيتحمل عنك هذا الابن كثيرًا من المسؤوليات، وسيخف عليك الحِمْلُ، خُصوصًا مع تقدم العمر وضعف القوة، فتحتاج إلى من يقاسمك الجهد، ويُنحِّي عنك بعض التكاليف والمسؤوليات، **على أنه ومما يجب أن ينتبه له**: أنه ليس معنى أن يتحمل الابن بعض المسؤوليات المتعلقة بك، أن تخرجه من إطار طفولته ومراحل حياته، فالاعتدال في هذا الأمر مطلوب، **ومن الاستقرار النفسي للابن**: أن يعيش مراحل حياته ويتذوق شيئًا من ثمار الزمن الذي يعيش فيه.

خامسًا: من أعظم الأمور التي يقوم بها الوالد أن يربي أولاده على الصلاح، وفي ذلك يقدِّم إلى المجتمع هدية عظيمة، تحفظ الاتزان، وتنتج الثمار اليانعة التي لا ينقطع نفعها، وأعظم من ذلك أن يقدم لنفسه عملًا عظيمًا، كبير النفع، عظيم الأجر، يعرف قدره حين لقاء ربِّه، حيث يجد لنفسه أجر عملٍ لم يكسبه في حياته، ولم يسعَ للحصول عليه في ذاته، ومع ذلك وجد أجره محفوظًا، فقد جاء في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ ليَرفَعُ الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب أنَّى لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولَدِكَ لَك**»[1].

فلما أحسن الوالد تربية ابنه، وقوَّمه على الصلاح متقربًا بذلك لله رب العالمين، جزاه الله أن جعل عمله مستمرًّا، وأجره مستقرًّا، بسبب عمل هذا الابن الصالح، الذي أحسن الوالد تربيته؛ حيث ربَّاه على الصلاح، وقاده صلاحه أن بَرَّ بوالديه بالدعاء والاستغفار، فَثَقَّل الله موازين والديه بعمله،

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٠٦١٠)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني (١٥٩٨).

وهذه من الثمرات التي يجب أن ينبَّه إليها الناس، فقد لا يكون الوالد ذا عملٍ صالح كبير، ويُرزَق بولدٍ صالح، فالواجب عليه أن يعينه على صلاحه، ويوفر له أسباب التمسك بالهداية، ويتيقَّن أن هذا الابن كنزٌ مُدَّخر، وأجرٌ لا ينقطع، ورحمة من الله عَزَّوَجَلَّ أُهدِيَت إليه، فلابدَّ أن يتلقاها بالشكر، **وأعظم أبواب الشكر**: إعانة الابن على ما يكون فيه صلاح حاله واستقامته.

وعليه، فالواجب على الوالد أن يجعل أبناءه في الدرجة الأولى من اهتماماته، فهُم مَن سيفقده عند رحيله، ويذكرونه في دعائهم، وعلى قدر البذل من قبل الآباء تتحقق النتيجة من الأبناء، والمُوَفِّق هو الله عَزَّوَجَلَّ.

سادسًا: إن هذا الابن سيُصَاحبك فترة محددة بزمنٍ مهما طال أوانه، ثم لا تبرح الابنة أن تتزوج وتعيش في كنف شخص آخر، والولد يستقل بحياته، فإذا أحسنت التربية خرجْتَ بثمرة تعبك ونتيجة سعيك، ثم من جانب آخر تكون قد قدمْتَ لهم الخدمة التي لا تُنسى على مرِّ السنين وتقادم الأعوام، وذلك بتعليمك إياهم كيف يواجهون الحياة، ويتعاملون

مع الأحداث والخَلْقِ على اختلاف أنواعهم ومَشارِبِهم، فيعرفون فضلك الكبير عليهم، ويشكرون صنيعك نحوهم، بل ويحمد لك المجتمع فعلك حين قدمْتَ لهم شخصًا ناجحًا، أو على الأقل غير مُؤْذٍ.

تربية الأبناء.. واقع لا أمنيات

من أجل أن نشعر بالاطمئنان، ونستلذ الراحة إلى حدٍّ بعيد، يجب أن نتعامل مع الأحداث المحيطة بنا من باب الواقع لا الأمنيات، ومثله الحال في تربية الأبناء، فيجب أن نتعامل معها كواقعٍ وليس أمنيات، وأعني بذلك أن نتعايش مع واقعنا الذي نعيشه، فنرسم له طريقة التعامل المناسبة، وليس مجرد أمنيات إذا لم تتحقق على أرض الواقع شَعَرْنا بالإحباط أو الهزيمة والاضطراب، أو أن تقودنا الأماني إلى التصرف من خلال خيالات ليست مَوجُودة على أرض الواقع.

عِشْ واقعَك التربويَّ المختلف عن غيرك، فتصَرَّف مع حياتك أنت وسلوكيات أفراد أسرتك من خلال سلوكياتهم هم، وليس من خلال سلوكيات أفرادٍ لا يمثِّلون جزءًا من واقعك، فتذهب لرسم خطة على أشخاص غير موجودين

على أرض الواقع الخاص بك، فلا تصل إلى نتيجة.

إن التربية مسألة مُعقَّدة، غالبًا ما نشعر بصعوبتها، ونغضب ونصاب بالحنق، ونتذمر من أطفالنا المخالفين، بالرغم من أنه لا مانع أحيانًا من وضع أنفسنا مكان الطفل ومحاولة فهمه، لكننا لا نفعل ذلك، أحيانًا بسبب الكسل الذي يسيطر علينا، وأحيانًا أخرى بسبب أنانيتنا، وأحيانًا لأننا نكون واثقين تمامًا بأن الطفل مُلزَم بالعيش وفق الطريقة التي نحددها له نحن بشكل صارم ومُنَظَّم، ولا يحق له مخالفة أوامرنا أبدًا، وغالبًا ما نجهل ببساطة تلك المبادئ المنطقية التي تتطور نفسية الطفل وفقها[1].

إن قضية تربية الأبناء ليست قضية سهلة؛ لأنك تتعامل مع شخصيات مختلفة مجتمعة في شخص واحدٍ، ما بين فترة وفترة تجد له شخصية مغايرة وطباعًا مختلفة، وأنت ملزم أن تتعايش مع هذه الشخصيات سريعة التطور والمتغيرات، مُتَقلِّبة الطباع .

(١) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة»، لـ(كولتشيتسكايا)، (ص٤٧).

ولكي تحصُلَ على جناها المثمر، أو على الأقل تصل بها إلى بر الأمان، لا تملك إلا أن تتعامل معها وفق هذه المتغيرات، فما بالك إذا كانت هذه التركيبات الشخصية المتغيرة موجودة في جملة من الأشخاص، فهذا يجعل التعامل معها -لكي تحافظ على كيان الأسرة وتحتفظ باتزانها- أمرًا ليس بالسهل، من ناحية الواقع لا التنظير.

وممَّا يجعل التربية أمرًا صعبًا: كثرة الأطراف المحيطة التي تنازع الوالد في تربية أولاده -المجتمع، المدرسة، الأقارب، الشارع، وغير ذلك مما يحيط بالابن- وينازع الوالد في المحافظة على سلوكيات ابنه، ويجعل مهمته في التربية أصعب، وعلى كثرة المنازعات من حوله، فكل طريق يحتاج إلى نوع خاص من التعامُل.

فلا يكفي لنجَاح التَّربية أن نكون فاضِلين ومتقيدين بقواعد السلوك السليم، حتى يأخذ أبناؤنا بتقليدنا في جميع تصرفاتهم، فلو كان الأمر كذلك لما ظهرت الدموع أبدًا في عيون الوالدين، ولما كان هناك قلق وتأنيب ومصائب.

فمما يؤسَفُ له ويتحدَّثُ عنه الواقع: أن الإخفاقات في تربية الأطفال تحدث حتى في الأسر الناجحة والمتماسكة، فمع ازدياد مخالطة الطفل للناس الآخرين، يأخذ بتشكيل وجهة نظره الأخلاقية الخاصة، وأفكاره وتطلعاته التي تتكرَّس تدريجيًّا لتأخذ في التحكم بتصرفاته وسلوكه، فإذا نحن لم نَلحَظ هذه الفترة العابرة من حياة الطفل، التي تتحول فيها نظرته الأخلاقية البسيطة إلى مشاعر ثابتة، ودوافع مستقبلية قوية لتحديد تصرفاته، فسيكون من الصعب جدًّا فيما بعد التحكم بسلوكه، خاصة عندما تصبح هذه التطورات الثابتة معاكسة لتصوراتنا الحياتية[1].

ومن هنا يَعرف المَرء ويوقن بحاجته إلى رَبه وخالقه وفقره إليه، وأنه لا يستغني عن توفيق الله له ولو للحظة، فقد تُطَبِّق بعض البيوت جميع القواعد التربوية، ومع ذلك لا تحصل على الثمرة التي كانت تأمل أن تقطفها، وتجد بيوتًا أخرى لم تقم على قواعد تربوية مرسومة، بل وربما كانت الظروف لم تساعد

(١) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص١٢٧).

الوالد على الحصول على مُبتَغاه، ومع ذلك يخرج من هذا الواقع المُشَتَّت ثمرةٌ جَنِيَّة، ونبتة صالحة، لحكمة يريدها الله عَزَّوَجَلَّ، أو جزاء على فعل معروف، أو صلاح والد.

فمثل أي عمل يجب أن يتيقَّن المرء أن ما يبذله من الأمور العملية والأسباب المادية إنما هو من باب بذل السبب، **وفِي آخر المطاف وعلى كل الأحوال لابدَّ من معرفة أن هذا السَّبب إن لم يكتب الله له النجاح لن يتقَدَّم به أو يتأخَّر.**

ويجب أن يعرف المُربِّي أنه لن يحقق أهدافه حتى ينفق من جميل أيامه، ويكون قدوة عملية أكثر من التنظير، **وعليه أَلَّا يُكثِرَ الامتنان أو الشكوى إذا لم يَرَ رَدَّ الجميل من قِبَل من أحسن إليهم**؛ سواء كان ذلك بجحود فضله أو إيذائه نفسيًّا؛ فتجده يُعَدِّدُ ما فعل ويذكر ما قَدَّم متألمًا، وإذا كان هذا متوقعًا في العلاقات العادية مع سائر الناس، فوجود هذا الشعور ورَدَّةُ الفعل مع الأبناء تكون من باب أولى؛ لأنَّ الإحسانَ إليهم يُتوقَّع أن يكون على أقصى درجاتِ البَذل والعَطاء.

ربما لا تَظهرُ النتائجُ التي كنتَ تطمع بها على الأبناء، لكن

يكفيك أنك كنت مربيًا ناجحًا، قمت بدورك على الوجه المطلوب، أما حصول النتائج فهذا أمر لا تَملكُه، ولذلك كان مما يُسَلِّي الأمهاتِ والآباء -إذا لم تتحقق أهدافهم على الوجه المطلوب- يقينهم أنهم أدَّوا واجبَهُم بدون خَلَل.

على أنه من الضروري التنبيه على أن مقصودنا بعدم تحقيق الهدف المأمول به، لا يعني ذلك فساد الأبناء وانحرافهم، بل يدخل في ذلك حتى إذا لم يبلُغُوا المنزلة والمكانة التي رسَمَها لهم الآباء، وطمعوا أن يكونوا عليها.

أسس بناء الشخصية

إننا لا نجد آباء يستيقظون في الصباح وهم يُخَططون لجعل حياة أي طفل تَعيسَة، ولا نجد أمًّا أو أبًا يقول: سأصرخ هذا اليوم، وأتذَمَّر، وأظلم ولدي ما أمكنني ذلك، وعلى النقيض من ذلك؛ فإننا نجد آباء عديدين يجزمون بأنه سيكون هذا اليوم هادئًا، لا صُراخ، لا جدال، ولا عِرَاك، ومع ذلك وبالرغم من النَّوايا الحسَنة؛ فإنَّ الحرب غير المرغوبة تنشب مجددًا[1].

إن تأديب الابن مَطلَبٌ لكل والد، وميدانُ منافسة بين الأسر والأفراد، لعلمهم أن التأديب في الصغر وبداية النشأة يعني الراحة فيما يُستقبل من الأيام، وإلقاء الأثقال عن الكواهل التي لا تُستطاع أن تُحمل عند الكِبَر، فكيف إذا نتج عن هذا

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء»، لـ(د. هايم جينو، وآخرين)، (ص١١).

التأديب ابنٌ تَقر به العيون، وتسعد به النفوس، ويرى المرء أن سعيه وجهده صار واقعًا ملموسًا، وأن تعبه لم يذهب سُدًى؟!

وبالرغم من محبة الإنسان لصلاح ابنه وحُسن تربيته، إلا أنك تُفَاجَأ في أن ما يريد الآباء تحقيقه على عكس أفعالهم، فيريد الوالد أن يكون ابنه مهذبًا في الوقت الذي تجده في غاية القسوة، يريده أن يكتسب احترام الذات وهو غير مطمئن، يريده أن يكون سعيدًا ؛ وهو ليس كذلك .

على الأرجح أنه لا يوجد والد يريد أن يكون ابنه متهورًا أو بغيضًا أو ضعيفًا، بل إنه يسعى إلى أن يكون سعيدًا وأن يستشعر الأمان، ومع ذلك تجد أن الابن خلال مرحلة النمو يكتسب بعض الصفات والخصائص غير المرغوب بها، ويعجز عن الشعور بالأمان و التأقلم مع الآخرين، **ولو تأملنا في أسباب ذلك**: لوجدنا أنه يقوم على أخطاء تربوية يظهر أثرها على هذه الشخصية على مَرِّ الأيام وفي مستقبل العمر، ومن أجل أن نحصل على شخصية مميزة متزنة لابدَّ أن نرسم الخطة لطريقة التعامل الناجحة مع الابن، ونحذر الوقوع في

الأخطاء المدمِّرة التي تُعِيق العملية التربوية، وتضعف أهدافنا فلا نصل إلى ما كنا نأمل أن نحققه من خلالها.

فعلى المربِّي الناجح إذا أراد أن يحقق غايته: أن يراعي القواعد الأساسية التي تقوم عليها العملية التربوية الناجحة.

الطفل في حال النشأة

يجب أن يُنتبه إلى طور النشأة في حياة الأبناء ودوره في التربية، وألَّا يُستَهَان بهذه المرحلة؛ لأن الابن في أول نشوئه أسهل انقيادًا، وأسرع استجابة، كالأرض المُجَهَّزة للزراعة، إن أصابها ماء نفع، وإن وضع بها بذرٌ أينَع.

فمَن أحبَّ أن يُحمَد سَعيُه بعد طُول زمن، فَلْيهتم بمراحل الطفل الأولى؛ فيزرع فيه ما استطاع من الآداب والسلوكيات؛ لأن هذه المرحلة هي مرحلة التأسيس والانطباع الذهني لدى الأطفال، فتجدهم يحفظون ما يُلقى إليهم، و يستجيبون لما يؤمرون به، كما أنَّ هذه المرحلة تتطلب من الآباء الحذر من تربية أبنائهم على المُتَناقضَات القولية والفعلية؛ لأن ذلك سيؤدي إلى اضطراب طباعهم، وتعقيد أفهامهم، فيعيشون في حالة من التذبذب.

ومن أجل أهميَّة هذه المَرحَلة؛ فقد اهتم بها العلماء والمتخصصون أعظم اهتمام، ونَبَّهوا على خطورة إهمالها وعدم الاهتمام بها، وذلك أنَّ سني الطفولة تُخلِّف آثارًا لا تُمحى في حياة الإنسان، ففي هذه السنوات بالذات يُشيَّد أساس شخصيته، فإما أن تترسخ كشخصية نشطة، قوية الإرادة، فعالة وطموحة، أو بالعكس؛ كشخصية لا مبالية، اتكالية، ضعيفة الإرادة.

وفي هذه السنوات تتكون سمات الطبع الرئيسية، الطيبة في التعامل مع الناس، أو الاتكالية والأنانية، كما تنمو مقدرات الطفل الذهنية، رغبته الشديدة للمعرفة والاطلاع والتفَحُّص، واللجوء إلى النصيحة والمساعدة، وقد نبَّهَت المؤلفات التربوية إلى أهمية هذه السنوات بالذات في تشكيل الصفات الروحية لدى الإنسان فيما بعد[1].

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه، وترَكَه سدًى، فقد أساء غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قِبَل الآباء وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض

(١) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص٥٤).

الدِّين وسننه، فأضاعوهم صغارًا، فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كبارًا، كما عاتب بعضهم ولده على العقوق، فقال: يا أبتِ، إنك عقَقْتني صغيرًا فعقَقْتك كبيرًا، وأضعْتَني وليدًا فأضَعْتُك شيخًا»[1].

ومما يُنسَب إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قوله:

حَرِّض بَنِيكَ عَلَى الآدَابِ فِي الصِّغرِ ... كَيمَا تَقَرُّ بِهِم عَينَاكَ فِي الكِبَرِ

وَإِنَّمَا مَثَلُ الآدَاب تَجمَعُهَا ... في عُنفُوانِ الصِّبَا كَالنَّقشِ فِي الحَجَرِ

وقال ابنُ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «مَن لم يَجلس في الصغر حيث يَكرَه، لم يَجلِس في الكِبَرِ حيث يُحب»[2].

وقد نبَّه الغزالي إلى أهمية رياضة الصبيان في أول نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم، فقال: «اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكَدها، والصبيُّ أمانة عند والديه، وقلبُه الطاهرُ جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكُل ما نُقِش، ومائل إلى كل ما يُمال

(١) «تحفة المودود بأحكام المولود»، لابن القيم (ص٢٢٩).

(٢) «العقد الفريد»، لابن عبد ربه (٢/ ٤٣٥).

به إليه، فإن عُوِّد الخير وعُلِّمَه نشأ عليه وسعِد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكلُّ معلِّم له ومؤدب، وإن عُوِّد الشر وأُهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيِّم عليه والوالي له، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦]، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا، فبأن يَصُونَه عن نار الآخرة أولى، وصيَانَتُه بأن يؤدبه ويُهَذِّبه، ويعلِّمه مَحَاسن الأخلاق، ويحفظه من القرناء السوء، ولا يعوِّده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر؛ فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره، ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحًا ومخالفًا للبعض؛ فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه، وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشِّر بكمال العقل عند البلوغ، فالصبي المستحيي لا ينبغي أن يُهمل؛ بل يُستَعَان على تأديبه

بحيائه أو تمييزه، وأول ما يغلب عليه من الصفات: شَرَه الطعام، فينبغي أن يُؤدَّب فيه، مثل ألَّا يأخذ الطعام إلا بيمينه، وأن يقول عليه: «بِاسم الله» عند أخذه، وأن يأكل مما يليه، وألَّا يبادر إلى الطعام قبل غيره، وألَّا يحدق النظر إليه، ولا إلى من يأكل، وألَّا يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، وألَّا يوالي بين اللقم، ولا يلطخ يده ولا ثوبه، وبأن يُذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل، ويُمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به، والقناعة بالطعام الخَشِن أي طعام كان.

ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عُوِّدوا التنعم والرفاهية ولُبْس الثياب الفاخرة، وعن مخالطة كل من يُسمعه ما يرغِّبه فيه، فإنَّ الصبي مهما أُهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق، كذَّابًا حسودًا، سروقًا نمَّامًا، لحوحًا ذا فضول وضحك وكياد ومجانة، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب، ثم يشتغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم، لينغرس في نفسه حب الصالحين، ويُحفَظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله، ويحفظ من

مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد.

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يُكرَّم عليه ويُجازى عليه بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه، ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانيًا فينبغي أن يُعاتب سرًّا، ويعظَّم الأمر فيه، ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا، وأن يُطَّلَع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظًا هيبة الكلام معه، فلا يُوَبِّخه إلا أحيانًا، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح، وينبغي أن يُمنع من كل ما يفعله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح، فإذا تُرك تعوَّد فعل القبيح، ويُمنع من أن يفتخر

على أقرانه بشيء مما يملكه والداه، أو بشيء من مطاعمه وملابسه، بل يُعوَّد التواضع والإكرام لكل من عاشره، والتلطف في الكلام معهم، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئًا بَدَا له، حشمة إن كان من أولاد المحتشمين، بل يُعلَّم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ، وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة، وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة، وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصبص في انتظار لقمة والطمع فيها.

وينبغي أن يعوَّد ألَّا يبصق في مجلسه، ولا يمتخط ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يستدبر غيره، ولا يضَع رِجْلًا على رِجلٍ، ولا يضع كفه تحت ذقنه، ولا يعمد رأسه بساعده، فإن ذلك دليل الكسل، ويُعلَّم كيفية الجلوس، ويُمنَعُ كثرة الكلام، ويبيَّن له أن ذلك يدل على الوقاحة، وأنه فعل أبناء اللئام، ويمنع اليمين رأسًا، صادقًا كان أو كاذبًا، حتى لا يعتاد ذلك في الصغر، ويُمنع أن يبتدئ بالكلام، ويعوَّد ألَّا يتكلم إلا جوابًا وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنًّا، وأن يقوم لمن فوقه ويوسِّع له المكان، ويجلس بين يديه، ويمنع من لغو الكلام وفُحشه، ومن اللعن

والسَّب، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك، فإنَّ ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء، **وأصل تأديب الصبيان**: الحفظ من قرناء السوء.

وينبغي إذا ضربه المعلم ألَّا يكثر الصراخ والشغب، ولا يستشفع بأحد، بل يصبر، ويُذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان، وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكُتَّاب أن يلعب لعبًا جميلًا، يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإنَّ مَنْعَ الصبي من اللعب وإرهاقَه إلى التعلُّم دائمًا، يميت قلبه ويُبطِلُ ذكاءه، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسًا، وينبغي أن يعلَّم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه، ومَن هو أكبر منه سنًّا من قريب وأجنبي، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم، وأن يترك اللعب بين أيديهم، ومهما بلغ سن التمييز فينبغي ألَّا يسامح في ترك الطهارة والصلاة، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان، ويجنَّب لُبْس الحرير والذهب، ويُعلَّم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع.

ويُخَوَّف من السرقة وأكل الحرام، ومن الخيانة والكذب

والفحش، وكل ما يغلب على الصبيان.

فإذا وقع نشوه كذلك في الصبا، فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور، فيُذكر له أن الأطعمة أدوية، وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الدنيا كلها لا أصل لها، إذ لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها، وأنها دار ممر لا دار مقر، وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر، وأن الموت منتظر في كل ساعة، وأن الكَيِّسَ العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى، ويتسع نعيمه في الجنان.

فإذا كان النَّشءُ صالحًا؛ كان هذا الكلام عند البلوغ واقعًا مؤثرًا ناجعًا، يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر، وإن وقع النشء بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر، نبا قلبُه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس.

فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تُرَاعى، فإن الصبي بجوهره خُلِق قابلًا للخير والشر جميعًا، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد

الجانبين، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُل مولودٍ يولَدُ على الفِطرةِ، وإنما أبوَاهُ يُهَوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمَجِّسَانِهِ**»[1][2].

فالواجب على المُرَبِّي الانتباه لهذه المَرحَلة حق الانتباه، وأن يسعى إلى تقويم أخلاق أولاده حال الطفولة، وأن يؤدِّبَهُم في مراحل الصِّغَر؛ لأنه ليس لهم عزيمة تصرفهم لما يؤمر به من المذاهب الجميلة، والأفعال الحميدة، والطرائق المثلى، ولم تغلب عليهم بعدُ عادة رديئة تمنعهم من اتباع ما يُرَادُ بهم من ذلك، فمن عوَّد ابنه الأدب والأفعال الحميدة، والمذاهب الجميلة في الصغر حاز بذلك الفضيلة، ونال المحبة والكرامة، وبلغ غاية السعادة، ومن ترك فعل ذلك، وتخلى عن العناية به، أدَّاه ذلك إلى عظيم النقص، ولعله يعرف ذلك في وقت لا يمكنه تلافيه، واستدراك ما فاته منه، فتحصل له الندامة التي هي ثمرة الخطأ، وذلك أنَّا قد نرى من الناس من يعلم أنَّ مذاهبه رديئة، ولا يخفى عليه الطريق المحمود، ويعسر عليه

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) «إحياء علوم الدين»، للغزالي (ص٩٥٥-٩٥٧)، بتصرف.

النزوع إليه نظرًا لما اعتاده من العادة المتقدمة، ولموقع العادة هذا الموقع وحب أن يؤدَّب الأطفال ويُعوَّدوا بالأشياء الجميلة، وتربيتهم تربية فاضلة ليكونوا أخيارًا فضلاء، فإن أمكن أن يكون من الصبيان من لا يقبل ذلك، لم يلزمنا نحن التواني، وإغفال ما يجب في حين يمكن تأديبهم، فنرجع على أنفسنا باللوم[1].

قال ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج، الاعتناء بأمر خُلُقه، فإنه ينشأ على ما عوَّده المربي في صغره، من حرد وغضب، ولجاج وعجلة، وخفةٍ مع هواه، وطيش وحدَّة وجشع، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخةً له، فلو تحرَّز منها غاية التحرُّز فضحته ولابدَّ يومًا ما، ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم وذلك من قِبَل التربية التي نشأ عليها»[2].

وقد نبَّه الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **إلى أهمية التأديب في الصغر فقال:**

---

(١) انظر: «سياسة الصبيان وتدبيرهم»، لابن الجزار القيرواني (ص١٣٤).

(٢) «تحفة المودود بأحكام المولود» (ص٢٤٠).

«فأما التأديب اللازم للأب، فهو أن يأخذ ولده بمبادئ الآداب ليأنس بها، وينشأ عليها، فيسهل عليه قبولها عند الكبر، لاستئناسه بمبادئها في الصغر؛ لأنَّ نشأة الصغير على شيء تجعله مُتَطبعًا به، ومن أُغفل في الصغر كان تأديبه في الكبر عسيرًا»[1].

وقد أكد العالم النفسي الإنجليزي باوير في كتابه «التطور النفسي للطفل الرضيع» على أهمية الدور الكبير للفترة المبكرة من حياة الطفل على تطوُّره اللاحق، فقال: إن دور الرضاعة حسب اعتقادي يعتبر اللحظة الحاسمة في تطوُّر الطفل الذهني، ففي هذه الفترة يمكن للطفل أن يكتسب الكثير، ويمكنه بنفس الوقت أن يخسر الكثير، **والشيء الأهم من ذلك**: أنَّ ما يفقده الطفل في هذا الدور، لا يمكن أن يعوَّض عند الكبر بسهولة، أما ما يكسبه خلاله فيرسَخُ لديه لأمد بعيد[2].

فيجب الاهتمام بالأبناء في مرحلة النشأة؛ واستغلال هذه المراحل المبكرة في حياة الابن؛ لأن الابن في صغره يسهل

---

(١) «أدب الدنيا والدين»، للماوردي (ص٢٢٨).

(٢) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص٤١).

تشكيله وتوجيهه إلى ما نُريدُه منه، وكلما كبر وبدأت تتركب شخصيته، وصارت له ميولاته الخاصة، صعب عند ذلك امتثاله لما يراد به، إلا أن يشَاء الله.

وقد رأيتُ مَن أهمل ابنه في فترة النشأة، فلما كبر بدأ يأمره وينهاه فلا يستجيب له، فيزداد غضبًا بسبب ذلك، ويتحول أمرُهُ ونهيه إلى ساحة سِجَال وضجيج، بسبب اختلاف المبادئ والأفكار والتكوين الشَّخصي، فقد أهمل ابنه في صغره، فلما كبر أراد منه أن يعمل بكل ما يريد ويكون نسخة مُكَرَّرة منه، وهذا أمر ليس بالسَّهل، خصوصًا في مثل هذه الحال حيث افتقد الارتباط النفسي بين الفريقين، ولم يكن ثَمَّ عُنصرُ التقاءٍ يجمع بينهما.

فالوالد الذي يريد أن يحقق في ابنه كل عناصر النجاح، وما افتقده في نفسه من الأهداف المميزة، يجب أن يكون البذل والتضحية منه على قدر الهمَّة، فلا ينشغل بنفسه بل ولا حتى بتحقيق طموحه وأهدافه على حساب اهتمامه بأبنائه.

فليس من المَعقُول أن يترك الأب مسؤولية التربية على

عاتق زوجته بصفة دائمة، ثم يأتي فجأة ليباشر دوره التربوي، وقد تأسست الشخصيات وترسخت الأفكار، فالواجب أن يقضي مع أولاده الوقت الكافي، وأن يُحسَّ بشعورهم، ويغوص في أفكارهم، ويُصغِي إلى كلامهم، ليَفهم شخصياتهم، ويسعى في تطوير سُلوكهم وتصحيح أفكارهم، ويتعلمون منه كيف يصغون إليه وإلى والدتهم.

لذلك ينبغي إذا رأى الوالد انفلاتَ الابن من أوامره وتعاليمه، أن ينظر في حاله، هل اهتم به في مرحلة النشأة والتقويم، أم أنه أهمل هذا الجانب ولم يلتفت إليه إلا متأخرًا، فقد يُعينه ذلك على التماسِ طرقٍ وأساليبَ أخرى لتصحيح ما فات، والتماس المَخَارج من هذه الدائرة المغلقة.

الحب الفطري والحب الْمُكتسب

من المَطلُوب من الوَالِدِ: أن يبني علاقة متينة مع ابنه، وهذه مهمة ليست سهلة، بل هي من الصعوبة بمكان، ويمكن له أن يحققها عن طريق كَسْب الابن، فإذا كسب ابنه استطاع بعد ذلك أن يَزرَعَ فيه بذورَ التربية التي يطمع أن تُثمِر.

إن المحبة التي تكون مفتاحًا للألفة بين الطرفين، تختلف في الوالد عنها في الابن، فحُب الوالد لابنه حبٌّ فطري، ولكن حبَّ الولد لوالده أمر يحتاج إلى اكتساب، فعلى الوالد أن يكتسب من الأسباب ما يستجلب به قلبَ ولده، حتى ينفتح عليه، ويسهل بعد ذلك الوصول إلى قلبه والتأثير عليه.

ومطالبة الوالد بكَسْب ولده لا تعني أن يُلغي شخصيته حتى يكون معدومَ الوجود الفعلي، ولكن ليسهل عليه توجيهه، ويزرع فيه المبادئ التي تُعينه على مواجهة حياته.

كما لا يعني اكتساب محبة الولد أن يتذلل الوالد لأجل ذلك، لأنَّ المستفيد بالدرجة الأولى من المطالبة باكتساب المحبة هو الابن، حيث إنه سيشبع عاطفيًّا، زِدْ على ذلك أنه سيستفيد من تغذية والده له بخبرته التي اكتسبها، فيعود الابنُ ليتمتع باستقرار المعيشة، ومعرفة التعامل مع مجريات الأحداث حوله بثقة واطمئنان.

على أنه من الجَميلِ الإشارةُ إلى أن الوالد بصُنعه هذا لا يعدم فائدة تعد من أعظم الفوائد، وهي التشبع العاطفي المتمثل بالعلاقة الحميمية التي تربط بينه وبين ابنه.

وبالرغم من كون هذه العملية صعبة نوعًا ما، وتحتاج إلى خبرة وصبر، فإن الوالد يتمتع بالقدرة على إنجازها حين يبدأ بتفهُّم وجهات نظر الأبناء، والإصغاء إلى مشاعرهم، وأن يجعل نظره متوجهًا إلى المستقبل الذي سيكون واقعًا أسرع ما يكون.

أثر الحب والحنان في التربية

إن فَهْمَ مشاعر الآخرين يُؤدي إلى نجاح العلاقات الإنسانية، فالمشاعر تجعل الحياة ممتعة وجديرة بالاهتمام، وبفضل عواطفنا نستطيع الإحساس بالسعادة والفرح والبهجة والمحبة، ونشعر ببالغ السرور عند اكتشاف الشيء الجديد.

والمشاعر مُتنَاقضة، فنحن نحب و نكره، ونشعر بالمتعة والتقزز، ونفرح أو نحزن، كما تتميز المشاعر بعُمقها وقوة تأثيرها، فبقدر أهمية الأمر بالنسبة لنا ومدى خطورة الوضع، ومقدار ما نُكِنُّ للإنسان من احترام، تتولَّد في داخلنا مشاعر عميقة أو سطحية عابرة.

فكم نتألم ونشعر بالمرارة عندما يُبدِي لنا صديقٌ مظاهر اللامبالاة وعدم الاهتمام، لكننا لا نُحِس بأي شيء من هذا القبيل إذا أتى هذا التصرف من الإنسان الغريب!

ولِمَ نبتهج ونفرح لدى سماعنا الأخبار السارَّة؟

ولم نَبتَئِس ونحزن عندما نفقد مَن نَحُب؟

إن الشعور العميق يستحوذ على كياننا بالكامل، ويُوقِعُنا في أَسْرِهِ، بحيث نفقد التحرر من رِبْقَتِهِ[1].

نحن نعيش في زمن بَدَت فيه قلوب الكبار كقلوب الأطفال، تحركها العواطف، وتهزها المَشَاعر، ويحتاج أصحابها إلى قَلْبٍ حَنُون يَستَمِيلُهم نحوه، ويَجُرهم إليه، فكيف الحال إذن في قلوب الأطفال الذين يفتقرون إلى الإشباع العاطفي والمشاعر الرقيقة؟

وكما هو الحال في أي علاقةٍ إنسانية ناجحة، فإن وجود العاطفة في مهمة تربية الأبناء ركيزة أساسية لنجاح هذه العملية، ولأهمية العاطفة في العملية التربوية فقد أشار التربويون وذوو الاختصاص إلى أن العاطفة تُمثِّل الركن الأقوى، وأن عليها قوامَ العلاقةِ التربوية بين الآباء والأبناء، وأنَّ عليها مدارَ التربية الناجحة، وأن التهذيبَ السليم يقوم أساسًا على الحُب

(١) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص٥-٦).

المتبادل بين الطفل والوالدين ؛ وأنه يجب تعزيزه في مرحلة الطفولة[1].

وسترى في طَيَّاتِ هذا البحث أن كثيرًا من السلوكيات التي يتصف بها الأبناء إذا ما حاولنا أن نُغَيِّرَها فلابدَّ أن يكون للعاطفة دور في ذلك .

وقد أشار بعض الاختصاصيين إلى أن استخدام العاطفة قد كان سبيلًا لعلاج بعض المُشكلات التي تُعَد من الأمراض الشائكة، والسلوكيات المُهلكة، قال الدكتور هايم جينو: «أنا عالم نفسٍ أطفال، وأنا أُعالج أولادًا مضطربين، لنفترض أنني أرى أولادًا وأُعالجهم ساعة واحدة بالأسبوع على مدى سَنةٍ، بعد هذه المدة تختفي أعراضهم، ويبدءون بصورة أفضل تجاه أنفسهم، ويستطيعون الاندماج مع الآخرين، كما أنهم يتوقفون عن التململ في مدارسهم.

ما هو الشيء الذي أقوم به ويُسَاعدهم؟

إنني أتواصَلُ معهم بطريقة عطوفة، إنني أنتهز كل فرصة

(١) انظر: «مشكلات الأطفال في أطوار نموهم»، بنجامين سبوك، (ص١٥٩).

لمساعدتهم على تنمية الثقة بأنفسهم، وإذا كان بإمكان التواصل العطوف دَفْع الأولاد المرضى باتجاه المعافاة، فإنَّ مبادئه وتطبيقاته يجب توجيهها نحو الآباء والمعلمين، وفي حين أن المعالجين النفسيين قد يستطيعون إتمام عملية الشفاء، فإننا نجد أنه فقط أولئك الذين هم على اتصال يومي مع الأولاد يستطيعون مساعدتهم كي يصبحوا أصحاء نَفسِيًّا»[1].

وتشير الأبحاث إلى أنَّ المناخ النفسي السليم في الجماعة، والمُشبَع بالمشاعر الدافئة، والمحبة والحميمية التي يبديها كل عضو في هذه الجماعة تجاه أصحابه الآخرين، تعمل على رفع وتيرة وإنتاجية العمل، أما النفور المتبادل والمشاحنات والخصومات والنزاعات فإنها تؤدي إلى خفض المقدرة على العمل إلى حد كبير[2].

إن اهتمامَ الباحثين بإحياء رُوحِ العاطفة بين الآباء والأبناء والإشارة إلى ذلك، إنما جاء بعد دراسات واستقراءات نفسية،

---

(١) «التربية المثالية للأبناء» (ص٨).

(٢) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص٢١).

توصلوا على إثرها إلى هذه النتيجة، ومع ذلك لو أن الإنسان تَلَمَّس قلبه، لعلم حاجة الآخرين إلى العاطفة عن طريق مشاعرهم القلبية، ولو لم تشهد الدراسات بذلك، فالعاطفة حاجة مُلِحَّة يحتاجها كل أحد، كبر عمره أو صغر، وكلما تقدم المرء في العمر اكتشف حاجته لهذه العاطفة، فنحن -وإن رآنا الناس كبارًا- يبقى في داخلنا طفل صغير يبكي حيث لا يراه أحد.

إن المرءَ الذي يعامل ابنَهُ بحنان يدفعه إلى ذلك العاطفة، بل وحتى الأب الذي يقسو على أولاده يقوده إلى ذلك العاطفة المتمثلة بمحبته لتفوقهم على الآخرين، وتقدمهم على الأقران، وإن كان ثَمَّةَ خَلَلٌ حاصل جَرَّاء هذه العاطفة، فهو بسبب مُبَالغة المُربِّي بالحرص، أو لتصوره أن التربية وحدها هي التي تنتج شخصية ناجحة، غافلًا عن توفيق الله له.

لابدَّ أن نعرف أن إيجاد شخصية ناجحة يحتاج إلى والد حنون، يعطف على أولاده ويَحِنُّ عليهم؛ لأن هذا الحنان سيتولد عنه شخصية وَاثِقَة مُتَّزنة، تستطيع أن تُواصِلَ سيرها في الحياة دون متعلقات قديمة مؤذية أو ذكريات حزينة.

لابدَّ أن يستشعر الأب الحنانَ نحو طفله حتى لو أدَّبه، فتأديب الحنون المُحِب، يختلف عن العدو الشرس الذي ليس له همٌّ إلا إيذاء المقابل.

إن العاطفة بين الآباء والأبناء تُولِّد ذكريات جميلة، وإشباعًا عاطفيًّا، وهدوءًا نفسيًّا، يستشعره الابن إذا كبر ونضج وصار له بَنُون، إذ به يتذكر حنان والده عليه، فيُشبِعُ أبناءَهُ بذات الحنان، ويُصَاحِبهم حتى يرتَووا من عاطفته.

كم يتذكر الأبناء آباءهم الذين نَهَلُوا من حنانهم، وارتووا منه، وما زالوا يشعرون بالظمأ لذلك الحنان على رغم تقدمهم في السن، وربما حتى مع رحيل الآباء.

ولا أكتمكم سِرًّا أنني لا زلت أشتاق إلى أبي كثيرًا، بالرغم من مرُور السنوات على رحيله، وبالرغم من أنِّي لستُ بالصغير الذي يحتاجُ إلى ظلٍّ يستظل به، ولا بالخائف الذي يحتاج إلى حضن يحتمي به، وأجدني كلما تَقدمتُ بالعمر أشتاق إليه أكثر، ولعل ذلك بسبب الحنان المُتدفِّق الذي كنت ألمسه منه، والرحمة التي كان يفيض بها قلبه.

جميلةٌ تلك الدراسات التي توصَّلت إلى أن مَدَار التربية يقوم على العاطفة، وترى أنها حقَّقت سبقًا عظيمًا في الاكتشاف التربوي -وهو لا شَكَّ إنجاز عظيم- ونحن ولله الحمد والمِنَّة قد رزَقَنا الله عَزَّوَجَلَّ عِلمَ ذلك من سنين طويلة، فقد منَّ الله عَزَّوَجَلَّ علينا بالرحمة المُهدَاة رسول الهدى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي نبَّه على هذا الأصل العظيم بقَوله وفِعله، وهو صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي لم يسبقه أحد إلى خير.

فإن المتأمِّل في نصوص السنة النبوية، يتضح له من خلالها اهتمامها بالعلاقة العاطفية بين الآباء والأبناء، وأنَّ هذه العاطفة من أصول التربية الناجحة، التي تُثمر شخصياتٍ مطمئنةً، تتصرف بثقة، وتتصف بسكينة، وتحقق الأهداف.

كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الحنون العطوف مَثَلًا عظيمًا في التعامل مع أبنائه بالعطف والحنان، بل وفعَل من خلال ذلك ما لا يفعله إلا عظيم العاطفة، كبيرُ القلب، ليكون لنا قدوة في ذلك، فتسعد حياتنا من خلال الاقتداء به.

لقد قادَت العاطفةُ رسُولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى أن نَزل

من المنبر وهو يخطُب، من أجل طفل تعثَّر في ملابسه فحمله وعاد إلى المنبر، فقد جاء في الحديث أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخطب، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المنبر، فحملهما فوضعَهُما بين يديه، ثم قال: «**صَدق الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** [التغابن:١٥]، **نظَرتُ إلى هذَين الصبيينِ يمشيَان ويعثران، فلم أصبِر حتى قَطعتُ حَدِيثي ورَفَعتُهُمَا**»(١).

ولما احتُضِرَ إبراهيم ابنُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه وهو يَجُود بنفسه، فأخذه، فقبله، وشَمَّه، وجعلَت عينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنت يا رسولَ الله؟ فقال: «**يا ابن عَوف، إنَّها رَحمة**»، ثم أتبعها بأخرى، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن العين تَدمَع، والقلب يَحزن، ولا نقولُ إلا ما يُرضى ربَّنا، وإنا بفِرَاقِكَ يا إبراهيمُ لمَحزُونون**»(٢).

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٢٩٩٥)، وهو صحيح، انظر: «صحيح سنن أبي داود» للألباني (١٠١٦).

(٢) رواه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

وفيضانُ الدموع دليلٌ على رقَّة القلب، وعظيم العاطفة.

وأرسَلَت إليه إحدى بناته أنَّ ابنها يحتضر، فجاء إليها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرُفع الصبي إليه ونَفسُهُ تَقعقَع، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: «**هذه رحمَةٌ جعلَهَا الله في قلوب عبَادِه، وإنما يرحمُ اللهُ من عباده الرحمَاءَ**»[1]، فبكى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمةً وحنانًا.

وقال جابر بن سَمُرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صلَّيت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله وخَرجتُ معه، فاستقبلَه وِلدَان، فجعل يمسح خَدَّي أحدِهم واحدًا واحدًا، قال: وأما أنا فمَسَح خدي، فوجدتُ ليَدِهِ بَردًا أو ريحًا كأنما أخرجهَا من جُؤنة عطَّار[2].

وفي هذا مُدَاعبة لعواطف الأطفال وإشعارهم بالرحمَةِ والمَحَبة والحنان، مما يكون له أعظم الأثر في نفوسهم.

وكان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزور الأنصار، فيسلم على

---

(١) رواه البخاري (٥٦٥٥)، ومسلم (٩٢٣).

(٢) رواه مسلم (٢٣٢٩).

صبيانهم، ويمسَحُ على رؤوسِهِم، ويَدعُو لهم[1].

وكان يأخذُ الصبي ويُجلِسُه في حجره، ولربما بالَ الصبي في حضنه[2].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلي، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا رفع رأسَه أخذهما بيده من خلفه أخذًا رفيقًا، فوضعَهُما وضعًا رفيقًا، فإذا عاد، عادَا، فلمَّا صلَّى وضعهما على فخذيه واحدًا هاهنا، وواحدًا هاهنا[3].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَانِقُ الصبيان ويَحمِلُهم ويُقَبِّلهم، فقد خرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإذا حسين يلعب في الطريق، فأسرع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمام القوم، ثم بسط يديه، فجعل الغلام يَمُر مرة هاهنا ومَرة هاهنا؛ ويُضَاحِكُه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٤٥٩)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٢٧٨).

(٢) رواه البخاري (٢٢٣)، ومسلم (٢٨٦).

(٣) رواه أحمد (١٠٦٥٩)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣٣٢٥).

أخذه، فجعل إحدى يديه في ذَقنه والأخرى في رأسِهِ، ثم اعتنقه فقبَّله[1].

وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه، ومعه الحسن والحسين، هذا على عاتقه، وهذا على عاتقه، وهو يَلثُم هذا مرة، وهذا مرة، حتى انتهى إليهم[2].

وجاء أعرابيٌّ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أتُقَبِّلون صبيانكم؟! فوالله ما نقبلهم! فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَوَأَمْلِكُ لك أن نَزَعَ الله من قلبك الرحمَةَ؟!**»[3].

فهذه الأحاديث وأمثالها تلفتُ الانتباه إلى استشعار عظيم العاطفة تجاه الأبناء، وأنَّ عليها مَدارَ التربيةِ، وتدعو إلى الاقتداء بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك.

---

(١) رواه ابن ماجه (١٤٤)، وهو حسن، انظر: «صحيح الأدب المفرد» للألباني (١٥٢).

(٢) رواه أحمد (٩٦٧٣)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٨٩٥).

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).

فمن السَّهل أن يدَّعِيَ المرء وجود العاطفة، لكن التطبيق العملي هو الذي يُصَدِّق الواقع أو يُكَذِّبه.

صحيحٌ ما يُشار إليه أن الابن لابدَّ أن يحمل المسؤوليات التي يجب أن يُطَالَب بها، لكن هذا لا يعني التجرد من العاطفة، بل إن الواجب أنه حتى وفي حالة مطالبة الابن بالواجبات المنوطة به، بل وحتى مع تأديبه على خَطئِهِ لابد أن يستشعر أن الدافع لذلك هو الحنان والعاطفة.

ويُمكنُ أن نَختصر الحديث في هذا المَقَام بقولنا:

أدِّب ابنك، وجِّهه، انصحه، عَلِّمه، ومع ذلك كُله أضف إلى هذه الأعمال أن تجعله يستشعر أن القائد لكُل معاملاتك معه هو عطفك وحنَانك.

فالأبناء يحتاجون إلى والد عاطفيٍّ حَنُون، وفي حال فُقدانه سيكون هناك خَللٌ في العملية التربوية، واضطراب في المشاعر، في الغالب لن يكون هناك سبيلٌ إلى تعويضها.

إن الحنان والطِّيبَةَ والجهد الذي نبذله لجعل الطفل يعيش طفولة سعيدة، وسَعْينا لتأمين حياة هادئة للطفل، وتكوين

نظرة متفائلة لديه نحو المستقبل، هي جميعًا أمور لابدَّ منها.

إن هذه الطريقة في التعامل مع الطفل تُقدِّم بالفعل ثمارًا طيبة في تكوين شخصية إيجابية فعَّالة، شَريطَة ألَّا يحصل على الرفاهِية والبُحْبُوحَة على حساب الآخرين، بالإضافة إلى أنه يجب ألَّا يتكون لدى الطفل انطباعٌ بأننا نقدم أنفسنا ضَحية من أجله، وأننا مُستعدون للتخَلِّي عن كل شيء من أجل أن نُوفر له البهجة والسرور، والأهم من ذلك يجب ألا يَشعُرَ أنَّ بإمكانه الاتكَالَ على مَن حوله، واستخدامهم من أجل بلوغ غاياته الشخصية، وأنه يجب الاستفادة والحُصول على كل ما يمكن في كل مناسبة دون بذل المُقَابل، حتى لا يؤدي به ذلك إلى التطبُّع بالأنَانية[1].

وقد أفَادَت بعضُ الدراسات أنه لو أُجرِي تحليلٌ لتاريخ نشأة الفكر التربوية بانتباه، منذ أقدم الأزمنة وحتى عصرنا الرَّاهن، كان من المُلاحظ أن الفكرة الأساسية التي يعتمد عليها أغلب النظريات التربوية، **تدورُ حولَ زرع المَشَاعر الإنسانية**

(١) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص٦٠).

في نَفس الطفل، فمحبة الطفل، والنظر إليه نظرة إنسانية هي القاعدة الأسَاس في التربية، كما أنَّ من الوسائل التي تجعل الطفل مُرهَف الإحساس، مطيعًا لَبِقًا في تعَامُلِهِ مع الآخرين، وأن يكون طيبًا، أن ذلك يكون بسبب المعاملة الطيبة التي يتلقاها الطفل مع ذَوِيه، فهي العامل الأول الذي يُساهِم في نُمو هذه المَشَاعر في نفس الطفل.

الأمان العاطفي

خلال العمليَّة التربوية يجب على الآباء والأمهات توفير الأمان العاطفي لأبنائهم؛ حتى يعيشوا مستقرين نفسيًّا، ولأجل تحقيق هذه الغاية لابد من توفير الأسباب المؤدية إليها، وتجنب الوسائل التي تَصُدُّ عنها.

ومِن أعظم ما يوفِّر ذلك: العلمُ بأنه لا تنجح التربية ولن تؤتي ثمارها إلا بإيجاد المحبة بين الآباء والأبناء، فالحب من أعظم أسس نجاح التربية، إن لم يَكُن هو ركنها الأقوى، فالشخص الذي يُحبك يتقبَّلُ منك أكثر من غيره، والأبناء يميلون إلى والدهم إذا استشعروا محبته، ولذلك من المستحسن أن يتبصَّرَ الوالدان بالوسائل والطرق التي تَجذِبُ هذه المحبة وتُنَمِّيها، وتُرَوِّض له قلوب أبنائه؛ لأنه يسعى إلى إصلاحهم، ولن يكون ذلك إلا إذا تَقَبَّلُوا منه، ولن يتقبلوه إلا إذا أَحَبُّوه.

يحتاجُ الأبناء إلى توفير الأمان العاطفي المُتَمثِّل بالحُب، ولذلك إذا وَفَّر الوالدان ذلك وأحبهم الأبناء فليحذروا أشد الحذر من التهديد بسَحبِ المحبة كلما رأوا سلوكيات خاطئة من قِبَلِ الأبناء، فإن هذا يُؤدي بهم إلى الخوف والاضطراب، خصوصًا إذا كانوا صغارًا غير مُدرِكِين، وهذا مما يجعلهم لا يعيشون حياتهم الطبيعية، ويبقى عندهم شعور بالقلق نحو تصرفاتهم، فلا يميزون مع الوقت ما الذي يزعج الوالد فيكون سببًا قي خسارة محبته.

يجبُ أن يكون التقويمُ لشخصية الطفل وتصحيح أخطائه بعيدًا عن التَّهديد بسَحْب الحب، فهذا كفيل بأن يجعله يحيا حياةً طبيعية، ويعلم أن تصرفاته خاضعة للصواب والخطأ، وأن تقويم الأب لأخطائه -حتى لو كان بنَوع من القَسوَةِ- دافِعُه المحبة.

وجَميلٌ بالوالدَيْن أن يلتَمِسَا الوسائل التي تُشعر الابن بجوٍّ من الحب والحنان والتفَقُّد لأحواله، ويَعلمَا أن الاستقرار العاطفيَّ سببٌ لقوة الشخصية، واطمئنان القلب.

ولذلك يؤكد علماء التربية على الاهتمام باحتضان الطفل

من قِبَل الأم أو الأب أثناء خروجه في الصباح إلى مدرسته، وتفقد ملابسه، وتقبيله، لأن هذا الشعُور بمَثَابة المُغَذِّي لبقية اليوم، ويخفف من شعور الجَفَاف والجَفاء، حتى يخرج هادئ النفس إلى مدرسته، **وخُذ مثلًا**: الأطفال الذين تُوكِّل الأم مهمة استعدادهم للمدرسة في الصباح إلى الخادمة، كم يعلوهم من الشعور البائس حين يَستشعرُونَ أن لا أَحَدَ يهتمُّ بهم، وفي المقابل تجد أُمًّا قامت مع أولادها، فتفقدت أكلهم وحاجتهم وملابسهم، ثم قامت بالمَسحِ على رؤوسهم، ودعت لهم بخَير، ثم ودَّعَتهُم على شَوق إلى حين انصرافهم من المدرسة ليتم اللقاء الودود بعد ذلك من جديد.

إن المُلامَسة الجَسَدية لها دورٌ عظيم في إضفَاء الحنان والمَحبَّة بين الوالدين والأبناء، وقد أشارت السنة النبوية إلى دور الملامسة في إضفاء الشعور بالحب والحنان، ولذلك فقد أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَدِ مُعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال له: «**إنِّي أُحبُّك**»[1]، فإعلان المَحَبَّة بالقول والفعل دليلٌ على

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الأدب المفرد» للألباني (٥٣٤).

الاهتمام به، فأي شُعُور بالاطمئنان والهدوء النفسي ينتُج عن مثل هذا التصَرُّف، فكيف لو صُرِف للأبناء؟

كما أن للقُبْلَةِ دورًا عظيمًا في تحقيق هذه الغاية؛ ولذلك قَبَّل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحسَنَ بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعنده رجل، فقال له الرجلُ: إن لي عشرةً من الولد ما قبَّلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**مَن لا يَرحَم لا يُرحَم**»[1].

وقَدِمَ أناس من الأعراب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقال: «**نعم**»، فقالوا: لكنَّا والله ما نُقَبِّل، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أوَأَملكُ إن كان الله نزعَ من قلبك الرحمَةَ**»[2].

المشكلةُ أن بعض الناس قاسي الطبع، فيعتذر لنفسه أن تقبيل الأبناء -لاسيما الأولاد- ينشئهم على أخلاق النعومَة، وهذا خطأ وتبرير في غير مَحَله، فالاعتدال في كل أمور الحياة مطلوب.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).

كن حَنُونًا، وكلِّفهم، وقوِّمهم على ما يكونون به رجالًا أسوياء، فقد استعمل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا على عمل، فرأى الرجلُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقبِّل صبيًّا له، فقال: تُقَبله وأنت أمير المؤمنين؟! لو كنتُ أنا ما فعلتُه، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فما ذنبي إن كان قد نُزِع من قلبِكَ الرحمة؟! إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحمَاء، ثم نَزعَهُ عن عمله، وقال: أنت لا تَرحَمُ ولدَكَ؛ فكيف ترحَمُ الناس؟![1].

وجاء عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقد بَلَغَ ما يُقَارب السَّبعين من عمره، وكان يدعو ابنه سالم بن عبد الله بن عمر وهو شيخ كبير قد تجاوز الخمسين، فيُقَبِّله ويقول مَازحًا: «شيخ يقبِّل شيخًا»[2].

وهذه الأفعالُ كانت تَصدُر من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم أرَقُّ الناس قلوبًا، وأصدقهم لهجة،

---

(١) انظر: «المجالسة وجواهر العلم»، لأحمد بن مروان الدينوري (٦/ ٣٢٥-٣٢٦).

(٢) «شرح السنة»، للبغوي (١٣/ ٣٦).

وأشجعهم عند لقاء الأعداء، حتى فتحوا الدنيا وهم عدد قليل يعيشون على بقعة صغيرة من الأرض، فلا تَضَاد بين تتبع وسائل المحبة والحنان، وإقامة الأبناء على أخلاق الصادقين الشجعان.

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمُر بالصِّبيان، ويسلم عليهم، ويمسح على رؤوسهم ويدعو لهم بالبركة، ويَمُرُّ على الصبي الصغير فيمازحه ويداعبه، وكل هذا مما يبعث الاطمئنان في النفوس، ويعطينا رسالة وهي أنك إذا أردت أن تؤثر ويسمع الناس منك ويطيعوك، فلابد أن تكون محبوبًا إليهم.

ومن الوسائل التي يحتاج أن تُنبَّه عليها الأمهات: احتضان الطفل عند النوم، والتحدُّث معه قليلًا بما يزول به خوفه، فأنت لا تدري أي شعور دَهَمَهُ، وهو سينام وحيدًا، على أن هذا ربما يكون في مرحلة عمرية دون غيرها، ومع ذلك يحسن الالتفات إليها، خصوصًا أن الطفل في مراحله الأولى يتساوى عنده الواقع والخيال، فربما يُخيَّل إليه أن أمه ستذهب وتتركه، أو غير ذلك، فيتأزَّم وتُفتَح عليه بسبب ذلك

الأحلام المزعجة، فجميل أن تأتي إليه أمه فتضمه إلى صدرها وتقبله حتى يطمئن.

إن الجَفاءَ الحاصل من بعض الأمهات لأبنائهن هو الذي وَلَّد هذه الحياة القاسية والوقائع البئيسة التي كثر بسببها الشكوى، مثَل ذلك كأُناسٍ زرعوا حبة في أرض قاحلة ثم تركوها بلا رعاية ولا سَقي، ثم يريدونها بعد ذلك أن تُثمِرَ، فكيف يكون ذلك؟!

وهؤلاء الأبناء كالحُبُوب التي تحتاج إلى حُسْن رعاية، فلابدَّ من أرض صالحة تحتضنها، ولابد من ينابيع صافية تسقيها، وأيدٍ ناصحة ترعاها، وإلا فلن تُؤتِيَ ثمارها، أو أن تخرج ثمرتها ضعيفة مُهتَرِئة لا ينتفع بها كليًّا؛ أو إلى حدٍّ بعيد.

إن غياب أو قلَّة الحنان والعطف من قِبَل الأم يؤدي غالبًا إلى ظهور جملة متنوعة من الحالات الانفعالية السلبية لدى الطفل، وتقود أحيانًا لإصابته بحالات نفسية معقدة، بدءًا من شعوره بالعجز والضعف، وانتهاء بشعور الحقد والكراهية تجاه الآخرين.

فالكثير من الأبحاث العلمية والنتائج العملية تشهد بأنَّ عِشْرَةَ الطفل لأمه وذويه، خاصة في سني حياته الأولى، تُعتبر من أهم العوامل التي تُساعد على نُمُوِّه النفسي والجسدي بشكل صحيح، وأن الطفل إذا كان مَحرُومًا من حنان الأم الصافي الرقيق، فإنه يفتقد بذلك لشيء لا يُعَوَّض أبدًا، فالإنسان الذي لم تكتحل عيناه برؤية أمه، يشتاق كثيرًا ويتوق للتمتع بشعور الطفولة وحنان الأم.

واتضح من خلال الدراسات أنَّ أهم ما يُسَاهِم في نمو حبِّ الأطفال للأم هو جسدها الرقيق الدافئ، فأهم شيء يحتاجه الطفل في المراحل المبكرة من حياته هو مؤثرات المعاشرة، فحين تقوم بمسح جسد وليدها مثلًا بيديها الدافئتين، وضمِّه إلى صدرها وغسله، تتشكل أول رابطة روحية بين الطفل والإنسان البالغ.

والسر الذي يكمن في الأم، ويجعل الطفل يشعر بالراحة والطمأنينة بين أحضانها، يعود بالدرجة الأولى إلى محبتها المجرَّدة للطفل دون البحث عن مقابل، وهذه المحبة متعددة الجوانب، **فهي تشمل: حمايةَ الطفل، ورعايته، والاهتمام به،**

والقلق من أجلِهِ، وغير ذلك من المَشَاعر[1].

ما أجمل أن يستشعر الأبناء الحُب حتى في حال التأديب والعقوبة!

ولا تظن أن هؤلاء الأبناء لا يميزون، فهم إن وفرنا لهم الجو التربوي المناسب سيعرفون أن تلك القسوة التي تعامل بها الوالدان كان الدافع إليها المحبة التي جعلتهم يتمنون أن يكون أبناؤهم أسبق الناس إلى صلاح الحال والسلوك، فيتقدمون على أقرانهم، ويسعدون بتحقيق أهدافهم، ويكونون مميزين على من سواهم، عند ذلك يعلمون أن المحبة ليست مقصورة على جانب دون جانب، ويلتمسون العذر لآبائهم وأمهاتهم حتى لو حصل منهم بعض التجاوزات؛ لأن كل عمل لابد أن يَحُوطَه شيءٌ من الإخفاق.

ومَع المطالبة بإسباغ المَحَبة على الأولاد، وعدم التهديد بسحب هذه المحبة، لابدَّ أن ننبه على أن هذا السِّلاح قد يكون مستخدمًا من قبل الأبناء ضِد الوالدين.

---

(١) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص٣٠-٣٤).

فمن الطبيعي أن يحب الآباء أولادهم، لكن من المُهِم ألَّا يكون لديهم تلك الحاجة المُلِحَّة ليكونوا محبوبين من أولادهم كل دقيقة من اليوم، فإن البعض وبسبب خوفهم من خسارة محبة أولادهم، لا يجرؤون على حرمان أطفالهم من أي شيء، بما في ذلك التحكُّم بالبيت، وما إن يستشعر الأولاد جُوعَ والدِيهم للحب، حتى يقوم الأولاد باستغلال ذلك دون رحمة، حتى يصِلُوا إلى درجة وكأنهم طُغاة يَحكُمون خَدَمًا قَلِقِين، ومن أجل ذلك فقد تعلَّم العديد من الأطفال كيف يهددون آباءهم بسَحب مَحبَّتهم عنهم، وبدَءُوا يستخدمون الابتزاز بكل وضوح وذلك بقولهم: «لن أحبك إذن»، ولا تَكمُن الكارثة بتهدِيدِ الوَلَد، ولكن بحَقيقَةِ شعور الوالدين بالتهديد، فبعض الآباء يتأثرون حقيقة بكلمات أولادهم حتى إنهم يرجون طفلهم بأن يستمر في محبته لهم، ويسترضونه عن طريق التسامح المُبَالَغ فيه، وهذا مُدمِّر للآباء والأطفال على حدٍّ سواء؛ لأنه يلغي الدور الحقيقي والحجم الطبيعي لكلٍّ منهم[1].

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص١٨٠).

على أنه ممَّا يَنبغي على الوالد: ألَّا يكون حَسَّاسًا جدًّا نحو كلمات الأبناء، وألَّا يجعلها في دائرة النقد الحقيقي، فالطفل قد يتكلم بدافع المحبة، والشاب ربما يتكلم من قبل عدم تمييز الألفاظ، فأحيانًا تكون الكلمات جَارِحَة، فيُقَوَّم سلوكُهُ مع المحافظة على بقاء الوالد في مكانه الطبيعي في قيادة الأسرة وتحصينها من التهديدات الخارقة لأمنها.

وممَّا يُهدِّد الأمان العاطفي في حيَاة الأبناء: التهديد بالتَّرك والهَجر، وهذا خطأ شَنيعٌ يقوم به بعض المُربِّين ظنًّا منهم أنه وسيلة تَربويَّة، فالأطفال يختلِفُون في التَّصَور، والتعَامل مع الوقائع، والخُضُوع للخَوف، ولذا فالواجب ألَّا يُهدَّد الطفل بتركه أبدًا، ولا يُنذَرُ بِهَجره لا عن طريق المُداعبة ولا الهَزل، فأحيانًا يُسمع والد غاضب أو أم غضبى في بعض الأماكن وهما يصرخان على ولدهما الذي يتجول ويحدث الفوضى: «إن لم تَأتِ سأتركك هنا»، فمن شأن مثل هذه العبارة أن تُوقِظَ شعور الخوف الكامن من الهجر، وتُلهِب نيران تصوُّر الطفل أن يُتْرَك وحيدًا في هذا العالم، فعندما يتجول الطفل لوحده بشكل لا يُمكن احتماله، فمن الأفضل أن يُسحب من يَدِه ولا يُهَدَّد بالكلمات.

فهم المشاعر

من الضروري التنبيه على أنَّ كلمة «**المَشَاعر**» ليست مَقصُورة على حالة الحب؛ **بل يُقصَد بالمَشَاعر**: الانفعالات التي تمر بالمرء؛ من حُب وخوف وغضب، وغير ذلك مما يستدعي ردَّة فعل نحو ما يمر بالمرء من أحداث مختلفة.

إن فهم مشَاعر شخصٍ ما، دليل على أهميته عند الطرف الآخر الذي شعر بأحاسيسه، واستشعر ما بِدَاخله، فالإحساسُ بالشعور دليل على صدق التواصل والتقارب النفسي، والمحبة القلبية، وكلما كان الشعور أقوى كان الأثر أبلغ وأصدق، **وقد كتَب د. وايتمان**: «إنني لا أسألُ الجريحَ عن جُرحه، وإنما أشعُرُ كأنَّني جريح مثله، فالعَطف والمُشاركة هي أحد أشكال الودِّ الإنساني المُتَمثِّل بالشعور بحالة الآخرين والإحساس والشَّفقة

والمواساة التي نقدمها لهم[1].

ومن الضروري بمَكَان في باب التَّربية أن يكون بيننا وبين الأبناء جسرٌ يُؤَدي إلى فهم مشاعرهم على اختلاف أنواعها، وأن نتعامل مع هذه المشاعر المختلفة كواقع، دون محاولة صرفها عما هي عليه إلى معنى آخر، بحجة الابتعاد عن الصدمة التي تؤثر في شخصه، بل إن المؤلفات العلمية التي دُونت منذ أمدٍ بعيدٍ إلى الآن، ما زالت تقرر الحقيقة القائلة بأن: **المَشَاعر هي الأساس لتكوين الكثير من السمات الخُلُقيَّة لشخصية الإنسان، وتشكل السِّمات الانفعالية للطَّبع**.

لقد ثبت واقعيًّا أن تَفَهُّم مشاعر الأبناء على اختلافها يؤدي بالتالي إلى كَسْبِهِم، فإن المهمة الصعبة في بناء العلاقة مع الأبناء لا يمكن أن تُنجَزَ أو تُحَقَّق إلا عن طريق كَسْبِهِم، وهي مهمة صعبة أيضًا ممكن أن تتحقق ما إن نبدأ بتفهُّم وجهات نظر الأبناء والإصغاء لمشاعرهم التي تتسبب أحيانًا بسوء سلوكهم[2].

---

(١) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص٦٤).

(٢) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٩٥).

ومن الخَطأ أن يعيش الإنسان خارج مشاعره، فتجده يقول شيئًا وهو يشعر بشيء آخر، وعليه فلابُد من معاملة الابن على حَسَب ما يشعر به؛ لأنَّ هذا سيسهل عملية توجيهه نحو الأكمل والأفضل، فحينما يُبدِي الوالد تفهمه لشعور ابنه أيًّا كان هذا الشعور، سيولِّد ذلك انفتاح الابن على والده، لأنه وجد مَن يَفهمه لا من ينقله إلى واقع غير موجود.

ولا أعني بالمَشَاعر هنا: مشاعر الحُب، إنما جميع المشاعر المختلفة التي يُحسُّها الابن، وحتى المشاعر المضطربة التي ما زالت في طور التكوين، ويحتاج الابن إلى مَن يخوض معه في أعماقها حتى يستخرج ما خَفِيَ منها.

لقد تَربَّى كثير من الناس على البقاء خارج مشاعرهم، لقد تم تدريبهم عندما يشعرون بالكراهية أن ذلك هو فقدان الحب، وعندما يكونون خائفين فقد قيل لهم: بأنه لا يوجد شيء ينبغي أن نخافَ منه، أو إن بكى أحدهم على فقيد قيل له: إن الرجل القَويَّ لا يبكي، وعندما يشعرون بالألم يُنصحون أن يتحَلَّوا بالشجاعة وأن يبتسموا!

وتعَلَّم الكثير منا أن يتظاهروا بأنهم سعداء في وقتٍ هم ليسوا كذلك، وأعظم الأشياء التي ممكن أن تَحُل مكان هذا التظاهر هي: **الصِّدق**.

إنَّ الرَّفض الدائم المُستَمر لمشَاعر الأولاد يمكن أن يشوِّشَهُم ويسخطهم، ويعلمهم أيضًا أن يتجاهلوا مشاعِرَهُم ولا يثقوا بها[1].

بإمكَان ثقافةِ المَشَاعر أن تُساعِدَ الأولادَ كي يَعرِفُوا مشَاعِرَهُم، فعندما يعرفون بكل وضوح ماهية مشاعرهم فإنهم يصبحون أقل احتمالًا لأن يشعروا بالتشويش الكُلِّي في أعماقهم.

عندما نقوم بتقديم وقتنا وعطفنا لنفهم الطفل، فإننا نرسل رسالة مختلفة جدًّا مفادها: إنك مُهِم بالنسبة لي، إنني أريد أن أفهم مشاعرك، فوراء هذه الرسالة الحيوية تكمن الطمأنينة التي يحتاجها الابنُ ليعيش بهدوء وسلام[2].

---

(١) انظر: «كيف تتحدث فيُصغي الصغار إليك»، أديل فابر وألين مازليش، (ص١٨).

(٢) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٣٩-٤٠).

ومثال ذلك: أنه عندما يأتي الابن إلى البيت مع مجموعة من الشكاوى حول صديق أو معلم أو شيء من أمور حياته، فمن الأفضل الاستماع إليه، والاستجابة إلى لَهجَة المشاعر بدلًا من محاولة تأكيد الحقائق أو التحقيق في الأهداف، فأحيانًا يكون في مُجَرد الاستماع إليه راحة، أفضل مما لو أُعطِي حلًّا بعيدًا عن تفهم مشَاعِره ولو كان الحل صَوَابًا.

ولذلك فقد قَرَّر علماءُ نفس الطفل أنَّ تعاطف الأهل مع الأبناء إسعافٌ أولي للمشاعر المجروحة، فإنَّ المشاعر القوية عند الأولاد لا تختفي بمجرد إخبارهم بقولنا: ليس من اللائق أن تشعروا بتلك الطريقة، أو عندما يحاول الوالدان إقناعهم بأنه ليس هناك سببٌ لتشعروا بتلك الطريقة، ولا تُبَدَّد المشاعر بمجرد منعها، لكن قد تضعف شدتها وتفقد نهاياتها الحادة عندما يبدأ المستمع بقبولها بكل تعاطف وتَفَهُّم[1].

بالنظر إلى الطبيعة البشرية: لابدَّ أن نأخذ بالحسبان أنه حيثما يوجد الحب فإنه توجد الكراهية، وحيثما يوجد الإعجاب

---

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٢٧-٢٨).

يوجد بعض الحسد، وحيثما يوجد الولاء يوجد العنف، وحيثما يوجد النجاح يوجد الهاجس بالفشل.

ويتطلب الأمر حكمة كي ندرك بأن كل المشاعر مشروعة: الإيجابية والسلبية والمُتَناقضة، فلذلك لابد من التعامل وفق ذلك، وأن نستجيب لمشاعر الابن على وفق الواقع الذي حصلت في إطاره، ونقدم الحَل من خلال ذلك، مع علمنا بأن التفهم للمشاعر بحد ذاته إنجاز، لأنه سيمدُّ جسور التواصل والألفة والمحبة.

وقد جاء في السنَّة: أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ بصبيٍّ مات له طير صغير، فقال: «**يا أبَا عُمَير، مَا فعل النُّغَير؟**»[1]، يُمازحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليخَفِّف عنه، ويبين له أنه يستشعر ألمه الحاصل له بسبب فَقْدِهِ لطيره، على أن الطير قد مات ولا يمكن ردُّه، لكن مشاركة الآخرين مشاعرهم بحد ذاته سبيل إلى تدفق أنهار المحبة، وقِسْ على نفسك حينما يمُرُّ بك همٌّ أو ألم، ثم يأتي من يقول لك مستشعرًا ما تُحِسُّ به: «إنِّي أشعرُ بألمِكَ»،

(١) رواه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).

ألا يجعلكَ ذلك تنظُرُ إلى صاحبك المتكلم بهذا نظرة إعجاب وأُلفة حينما أحسَّ بك بينما لم يَشعُر بك الآخرون؟

بل وأحيانًا لا يستطيع المتكلم أن يساعدك في حَلِّ مشكلتك وجَبْر مصابك، ومع ذلك تشكُر له صنيعه، وترى أثره في قلبك، وتقول: **يَكفِي أنه أحسَّ بمعاناتي وفهم شعوري**، فهكذا هو الحال بالنسبة للأبناء، إذا أردنا أن نغرس بهم غرسًا طيبًا، ونحصل على شخصية متزنة مستقرة، فالواجب أن نسعى إلى فهم مشاعرهم، ونجعل هذا الأمر بابًا إلى كسب قلوبهم، ثم من خلاله نستطيع أن نقَوِّم سلوكهم على الأخلاق المَحبُوبة، والصفات المحمودة.

إنَّ ما يحتاجه الناس في جميع الأعمار في لحظة الضيق، ليس مُوَافقة الآخرين أو مُخَالفتهم؛ بل يحتاجون إلى من يعترف بما يُعَانُون[1].

إنها راحة عميقة للأولاد حين يَكتَشِفُون أنَّ مشاعرهم هي جزء طبيعي من التجربة الإنسانية، وليس هناك طريقة أفضل

(١) انظر: «كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك» (ص٥٠).

لإفهامهم ذلك من عملية تَفهمهم[1].

ليس فقط الأولاد، لكن الغرباء أيضًا يُقَدِّرون تفهمنا المتعاطف لصعوباتهم.

رَوَتْ إحدى النساء بأنها تكره الذهاب إلى المصرف، لأنَّ المصرف يكون مكتظًّا عادة، ويبدو المدير وهو يتصرف وكأنه يُسدي لي خدمة كونه موجودًا فَحسب، كلما اضطررت للتقدم إليه فإنني أشعر بالاضطراب، وفي أحد أيام الخميس كان عليها أن تحصُلَ على توقيعه على شيك، كانت على وشك أن تشعر بالاضطراب وبعدم الصبر عندما انتبهت إلى تصرفاته مع الآخرين، ولكن ما إن قررت أن تضع نفسها في مكانه وعبَّرت عن تفهمها، وذلك بعكس مشاعره والاعتراف بها، فقالت: يوم خميس صعب آخر، كل شخص يريد أن يستأثر بانتبَاهِك، وحتى أنه لم يَحِن وقت الظهيرة بعد، لا أعرف كيف تستطيع أن تتدبر أمرك خلال النهار؟!

أشرق وَجهُ الرجُل، وللمرة الأولى رأته يبتسم، وقال:

---

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٣٢).

أوه، نعم إنَّ المكان هنا دائم الانشغال، يريد كل شخصٍ أن يستأثر بالاهتمام أولًا، وماذا أستطيع أن أفعل لك؟ إنه لم يكتفِ بالتوقيع على الشيك فقط، لكنه مشى معها نحو أمين الصندوق لإنجاز مُعَامَلتِهَا بسرعة أكبر[1].

لقد وُجِد أنه حين تُقبل مشاعر الأبناء، يكونون بعد ذلك مستعدين لقبول الحدود التي توضع لهم، **ومما يساعد في فهم مشاعرهم: أن نُصغِي إليهم بانتباه**، ونظهر اعترافًا بمشاعرهم مع كلمات ملائمة، مثل: «أَوَّاه، نَعَم، حسنًا، عجيب» وما إلى ذلك، وأن نمنحهم ما يجنح إليه خيالهم من تمنيات[2].

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٢٠-٢١).

(٢) انظر: «كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك» (ص٢٨).

دراسة نفسية الابن

لا شك أنَّ من منتهى التوفيق للوالد أن يصل إلى اكتشاف شخصية ابنه، لأنه عند ذلك سيعرف كيف يتعامل معه، ولذلك قال الإمام سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من سعادة المرء أن يشبهه ولدُه»[1]، وذلك أنه سيَصلُ إلى معالجة قضاياه وفق دراسة نفسِهِ هو؛ لوجُود الشبه الطبيعي، فيدرك ما كان خطأ فيتجنبه، وما كان صوابًا فينمِّيه، وكونه يعرف كيف يفكر ابنه وماذا يريد حتى قبل أن يتكلم أحيانًا، هذا إنجاز يَحمَدُ الله عليه؛ لأنه قد جاءه من غير كَسْب، وإنما هو مَحْضُ توفيق وامتنان من الله سبحانه.

ومن الوسائل التي تَجعَلُ الوالدَ ناجحًا في هذا الباب: أن يصَاحبَ ابنَهُ ولو كان صغيرًا، فيترك له مجالًا رحبًا في الكلام

(١) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»، لأبي نعيم الأصبهاني (٧/ ٧٢).

والتعبير، بل وحتى الأسئلة المتكررة، ولا يكثر التوجيه إلا فيما يحتاج التوجيه، وإن وجَّهه فليكن توجيهه مختصرًا، فإن الأبناء يكرهون الكلام المُكَرَّر، فبعض العبارات يمكن إيجازها في سطر، فتجد بعض الناس يدور عليها وحولها ويكررها حتى يُورِثَ بفعله هذا السآمَة.

صادِق ابنَك، أعطِهِ الثقة، كن قريبًا منه، لا تكثر النقد والتقييم، وجِّههُ بلُطْف خَفي، وليستشعر مع توجيهك الحب وأنك تريده متقدمًا على الأقران.

ومن الضروري وأنت تحذره من بعض السلوكيات ألَّا تذكر شخصًا معينًا تضرب عليه الأمثال، بل ليكن لفظك غالبًا: «بعض الناس يفعل كذا، أستغرب أن أناسًا يصنعون كذا»، فالكلام بالعموميات يؤتي ثمارًا يانعة، إلا إذا اضطررت أن تحذره من شخص بعينه مخافة إفساد حياته.

وطريقة الحديث بالعموم لا بالتعيين تنجح حتى مع أخطاء الابن الذاتية، فأحيانًا تريد أن تنبهه على خطأ صدر منه، فتترك ذلك أيامًا ثم تدخل معه في موضوع بذكاء، وتحكي وقائع، ثم تضمنها تنبيهك على خطئه فتقول: «وأستغرب من أناس يَفعَلُون

كذا!»، وأنت بفعلك هذا حذرته من الخطأ، وهو سيفهم أنه المعني، فيتقَبَّل منك ذلك لأنك لم تُواجهه صراحة فتحرجه، وربما ينفتح عليك على إثر ذلك فيعتذر، أو يُبيِّن لك وجهة فعله الخاطئ، فلا تكثر عليه العَتَب، فرسَالَتُك إليه وصلت، والواجب أن تجعل الأمر طبيعيًّا، فلا تُعنِّفه فينفر منك ولا يخبرك في داخلة نفسه بعد ذلك.

إنَّ مَدَّ جسُور الصداقة مع الأبناء تفتح باب الحُب للآباء؛ فيسهُلُ بعد ذلك تلقِّي الأبناء لمُلاحظات الآباء.

وملاحظات الآباء المبنية على استشعار المحبة للأبناء، تؤدي إلى شعور الابن باحترام أبيه له، ودليل ذلك سلوك طريقة الصَّداقة معه حتى في حال تنبيهه على أخطائه، وهذا مما يَمُد جسورَ الثقة بينهما.

نستطيع أن نجعل الحياة العائلية سَارَّة ومُبهِجَة، وقد أفاد المتخصصون بعلم نفس الطفل: أنَّ أنجح الآباء والأمهات، مع أسعد الأطفال وأحسنهم سلوكًا، لا يلجأون إلى العبوس والتجهُّم على الإطلاق، وذلك لأنهم وأطفالهم يجدون متعةً في الحياة مع بعضهم البعض، كما أنك إذا راقبت سلوك

هؤلاء الآباء والأمهات تجد أنهم يقومون بدورهم كآباء أولًا وقبل كل شيء، ولا يَخشَون على الإطلاق أن يوجهوا أطفالهم التوجيه اليومي المألوف، وأن يلجأوا بين وقت وآخر إلى التقويم الحازم الذي يحتاج إليه الأطفال جميعًا، وفضلًا عن ذلك فإن في وسْع هؤلاء الآباء أن يُعَاملوا أطفالهم معاملة في غاية الود والصداقة، لأنهم آباء مُحِبُّون تفيض قلوبهم بالحنان، ولأنهم بأسلوبهم في تربية أطفالهم قد جعلوا منهم أطفالًا لطيفي المَعشَر يبعثون على الحب.

أما عندما يحاول الآباء والأمهات أن يكونوا مجرد أصدقاء لأطفالهم لا أكثر ولا أقل، خشية أن ينفر منهم الأطفال لو قاموا بدورهم كآباء، فإنهم أحيانًا ينتهي بهم الأمر إلى إيجاد أطفال مُدَلَّلين مُفسِدِين، لا يبدون نحوهم أي شعور بالاحترام، أو حتى بالودِّ والصدَاقة[1].

هذا ولا يعني دراستك لنفسية ابنك أن تكسِرَ شخصيته، وأن تتغلب على إرادته، بل اجعل له مجالًا أن يكون قوي

(١) انظر: «مشكلات الأطفال في أطوار نموهم» (ص١٨٢).

الإرادة، فلا يلزم كونك تريد أن تصادقه وأن يكون صديقًا لك، أن تجعله صورة مكررة منك، **ولكن المقصود**: أن يكون شخصية ناجحة تفخر وتفرح بها، ويبقى دورك دور المُوجِّه عند الأخطاء، والمشَجِّع عند الإخفاق، والدافع قُدمًا نحو النجاح، والسعيد من أجل ابنه إذا وصل إلى غايته ونجح في ما سعى إليه.

كن صاحبًا خفيف الظل

من المُشاهَد أنَّ الوالد لا يُلازم ابنه دائمًا، ولطبيعته العملية وما يتحمله من المسؤوليات يجعله ذلك قليل الاختلاط بأولاده، ومهما حاول أن يُعطي من وقته فسيرى أنه لم يكن ذلك على الوجه الذي يرجوه ويتمناه، ومن أجل ذلك فإن الواجب عليه حين يختلط بأبنائه أن يستثمر هذه الدقائق أو الساعات بما يعود عليهم بالنفع، من التوجيه والإرشاد والحوار الذي يزرع الثقة في النفس، وأن يكون منصتًا جيدًا لما يطرحه أبناؤه من الآراء، وليكن في جلسته خفيف الظل، إذا ذهب يُفقَد وإذا جاء يُفرَحُ به، وبوابة ذلك ألَّا يُكثِرَ النقد والملاحظات في كل جلسة، وكأنه لابد أن يكون المجلس منضبطًا على نحو الطريقة العسكرية، بل الأجمل أن تكون جلسة مفتوحة لتلقي الآراء والحوار وزرع

روح التفاؤل والابتسامة، والنظر في تطلعات الأبناء؛ ميولهم الدراسي، هواياتهم، حاجاتهم، مع التأكيد على ضرورة أن يكون المجلس قائمًا على الأدب والاحترام والبُعد عن الآثام، بل وحتى الهوايات والميول لابد أن يُفهَّم الأبناء أنه لن يُسمح لهم بالانطلاق نحو ما فيه إثم أو خَلَل أدبي.

ومن المهم أن نعرف أنَّ الأسرة وأفرادها هي صورة مُصَغَّرة من المجتمع الكبير الذي نعيش فيه، فتحتاج إلى أساليبَ كثيرة من أجل التعايش مع الآخرين، حتى لا تُحَمِّل نفسك فوق طاقتها، وتهلك صحتك وأعصابك على أمرٍ مآله في آخر الأمر أن يكون على وفق ما كتبه الله عَزَّوَجَلَّ، لذلك يجب أن نتعامل معه بهدوء، بعد بذل النصيحة والحرص على الخير للآخرين، وأنت كمُرَبٍّ تذكر دائمًا: «**لا تُهلِك نَفسَك**»، فإنَّ الأمور ستمضي نحو ما قُدِّر لها، وسيعيش الناس وفق ما خطَّطُوه لأنفسهم، دورك أن تبيِّن لهم وجه الصواب الذي ترجَّحَ لديك، لكن لا يلزم أن يأخذوا بكل ما ذَكرتَهُ لهم أو خَطَّطتَه من أجلهم حتى لو كان صوابًا، وذلك لاختلاف المَدَارك والأفهام، ووجود الخبرة من عدمها.

كُن سهلًا في أطروحاتك، لطيفًا في معاشرتك، لكن تنبه إلى أنه مادام أن هؤلاء الأبناء يعيشون في كنفك وتحت رعايتك، فلابد أن يلتزموا بسلوكيات المنزل الذي تُدِيره أنت، حتى لا يُؤَدي ذلك إلى اختلال النظام التربوي، **فالرِّفق لا يعني ضَعفَ الشخصية، والغضبُ والهُجوم غير المُبَرر لا يعني قوةَ الشَّخصية**، ومن خلال الخبرة يتبين الفرق بين هذه السلوكيات.

الوالد اللطيف يكسب القلوب، والوالد كثير الإنصات يميل له الأبناء، فلا يحتاجون إلى شخص من خارج إطار الأسرة، والوالدُ السهلُ القريب نفسيًّا وبدنيًّا يكون مَلجأ لأبنائه حتى لو وقع منهم الخَطأ، ليَقينِهِم أنه قادرٌ على الاحتواء، فإذا أرَدتَ أن يلجأ إليك أبناؤك في أمورهم، فلابد من إزالة الحَواجِزِ فيما بينك وبينهم، وخُصوصًا أن تكون أمينًا فيما يبثونه إليك من الأخبار، فتتركها في مكانها ولا يَطَّلع عليها أحد، سواء كان من داخل أسوار الأسرة أم خارجها، فالثقةُ تجعل الابن منطلقًا إليك كلما احتاجك، **إلا الأم فمن رأيي ألَّا تكتم على الوالد شيئًا من أمور أبنائه إذا كان في أمر يتعلق عليه خَطأ فادح أو مُصيبة أخلاقية**، لاسيما إذا كان الأب متفهمًا عاقلًا يُعرَف عنه

أنه يبحث عن حل المشكلات لا تضخيمها.

فكثير من الحواجز التي تُزرع بين الآباء والأبناء قائمة على الظنون المُتَوهمة، أنه سيَضرِب، سيُعَاقب، لن يتفهم، وغير ذلك من المُبَررات التي تُتَّخذ وسيلة لكتمان الأخطاء، حتى يستمر الحال ويكون الظن كالأمر المتيقن، فيعيش الأبناء في جهة، والآباء في جهة أخرى.

يبقى دورك كوالد أن تُزيل الحواجز، لكن لا تهلك نفسك إذا لم ينطلق إليك الأبناء، وفضَّلوا أن يعيشوا بأسرارهم وآرائهم ولا يبثونها إليك، فبالتالي هم سيعيشون حياة مستقلة، وربما يكون ما جنيتَه من بَذْلِك لهم وإنفاق جميل أيامك، لا يتعدى كون اسمك مكتوبًا في بطاقاتهم الشخصية.

الوسط طيب في كل شيء، أعط بكرم، وابذل نصحك، لكن دَع لنفسك مجالًا كي تعيش مع نفسك دون كدِّ الذهن بالتفكير والتخطيط، **وتَذَكَّر: كلٌّ سيعيش حياته وفق ما يَهوَى ويحب، إنما هي مُصَاحبة بالمعروف في فترة زَمنية يجب أن تقوم خلالها بدورك على الوَجه اللَّائق، وكفَى.**

لو تذكرتَ دائمًا أن الأسرة صورة مصغرة من المجتمع الخارجي المحيط بك، سترتاح كثيرًا، فكم يمرُّ بك من الأشخاص وتتعامل معهم بردود أفعال مختلفة؟

طبِّق هذا على أسرتك؛ ستعيش هادئًا إلى حدٍّ بعيد، وحتى لو كنت ترى أنك لم تُحَقق كل طموحاتك.

في هذا المجتمع يمر بك مَن تحاوره، وتبذل له الآراء، وآخر لا تبذل له شيئًا من ذلك، لاختلاف التلقي بين الفريقين، هناك من يغضبك فتتجاوز عن الموقف لمصلحة راجحة، وهناك من يحتاج إلى أن تحتويه، وآخر يريد أن يبكي على صدرك، وآخر يريد أن يُعاتبك، وآخر يريد أن ترمم كسوره، وتبني جسوره؛ ليتواصل مع المجتمع من جديد، وهناك من تحتاجه أنت في شيء من ذلك، فعليك أن تعيش بكل هذه المشاعر، وأن تعمل بها على أرض الواقع، وإلا فلن تنعم بعيش، فإذا كان هذا في المجتمع فمنزلك من باب أولى، والسعيد من امتَنَّ الله عليه فجعله قريبًا من الناس، محبوبًا مألوفًا، كما جاء في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُرِّم على النَّار على**

كُل هيِّن ليِّن سهلٍ قَريب من النَّاس»[1]، وأولى من تكون منصفًا معهم بهذه الأوصاف هم أهل بيتك، فإذا كنت قريبًا سهلًا لينًا، انتفع بك العباد العام والخاص، وانظر إلى واقع الناس يتضح لك ذلك جليًّا، حيث إنَّ الناس لا يلجأون في حاجاتهم النفسية والمعنوية والمادية إلا لمن اتصف بهذه الأوصاف أو بعضها، فينفعهم بتنفيس كروبهم وإزالة همومهم، فيغتبط هو ويشعر بالسعادة، حيث كان سببًا في إزالة هموم من التجأ إليه، فكيف إذا كان هذا الفرد أحد أبنائه الذين هم قطعة منه؟

وكنتُ ولازلت أوصي من أراه أهلًا لذلك، **أن يُطيلَ الاستماعَ والإنصَات لمن لجَأ إليه**، فإن في الاستماع للآخرين دواءً للمَكلُوم، وتَضميدًا للجِراح، وترميمًا للانكسار، فقد مرَّ بي حالات كثيرة يشتكون واقعًا مُرًّا يعيشونه، فكنت من أول الحديث أوقن أنني لا أملك حلًّا لهذا الشاكي، وهو أيضًا يعلم

(١) رواه أحمد (٣٩٣٨)، وهو صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٩٣٨).

أنه لا حل لمشكلته عندي أو عند غيري، ومع ذلك جاء ليتكلم لعلمه بمدى حاجته للحديث حتى لا يَنفجِرَ، ولا يظن المنصت أنه بهذا لم يقدِّم خدمةً لمن لجأ إليه، فإخراج الكلام من الصدور، نظير فتح غطاء القِدْر الذي أُوقِدَت تحته نارٌ ليخرج ما فيه من البخار المؤذي، ونظير فتح التنور المشتعل لتخف حرارة النار التي يأكل بعضها بعضًا، على أنه ليس من المبرر أن يعتاد المرء الشكوى، لكن قد يحتاج إليها في وقت لا يستطيع معه حبس الكلام في صدره، **ومع ذلك لابدَّ أن يُوقِن بأن القادر على تخليصه هو الله سبحانه، وإنما البشر أسباب، فلا يترك الدعاء واللجوء إلى الله وأن يَشكُوَ بثَّه وحُزنَهُ إليه سبحانه.**

ونعود إلى ما بدأناه، كُن قريبًا من أبنائك، وأزِلِ الحواجز الحقيقية والمُتَوهَّمة، وكن مختلفًا بأداء دورك على حسب مراحل عمره الزمنية، تحصد أسباب النجاح.

الابن الطبيعي

من الضروري أن يُتْرَك الابن يحيا حياة طبيعية، حيث تترك له مسَاحة للانطلاق دون فرض قيود بدَاعي الحرص أو الحماية المُبَالَغ فيها.

ففي مراحل حياته يحتاج الطفل أن يكون له أصدقاء بمثل عمره ليَعيشَ معهم المرحلة المُماثلة لسِنِّه وإدراكه.

فليس من المُستَحسَن منع الطفل من الجميع بداعي الخوف أو تغيُّر أخلاقه، بل تُجعل له مساحة من الحرية مع التوجيه.

إن الحصار الذي تفرضُهُ بعض الأسر على أبنائها، يجعل الابن قليلَ التجربة، أو ضعيف الثقة بنَفسِهِ، بحيث إذا ما احتاج إلى أن ينطلق نحو العالم، إذ به يُعاني ليتأقلَمَ مع الآخرين.

اجعل قاعدتك في تربية ابنك: «**انطَلِق، ولكن لا يَعني ذلك أنني لا أوجِّهُك، أو أفرِض عليك بعض الضَّوابط التي تَحمِيك**».

جميل أن نعيش حياتنا الطبيعية بدون مثالية ليست موجودة إلا في الخيال، كما يجب أن نتعامل مع أبنائنا بمثل هذا المبدأ.

الطفل في مراحله الأولى لابدَّ أن يَعبَث، يُخرِّب، يعاند، كل هذا متوقَّع ممن هو في مثل سِنِّه، فلا تكن طريقتنا معه معتمدة على القمع والتخويف والتهديد، وحتى تعرف شعوره تذكر مرحلتك الحياتية الأولى حين كنت في مثل سِنه، وتتصرف التصرفات التي ترى الآن أنها من نوع العبث، كيف كنت تتمنى أن يتعامل معك الآخرون؟

إنَّ فهم شعور الابن في مرحلته التي هو فيها مما يساعد على إتقان عملية التربية، ونجاح المشروع الذي نسعى إلى تحقيقه، بإيجاد لبنة صالحة يقوم عليها قصر عظيم.

كما أنَّ فرض القيود بحُجَّة حماية الطفل من الأخطار، إذا لم يكن مدروسًا وبوسطية واعتدال، سيخرج لنا شخصيات مهزوزة، أو على الأقل: شخصيات تكتم المشاعر التي من الطبيعي أن تخرج إلى أرض الواقع، ثم إذا خرجت بعد أن كُتِمَت طويلًا فإذا برَدَّة الفعل تكون عنيفة، من ابن لا يجيد التصرف بوضع الأمور في نصابها، أو من والدين لا يعرفان

كيف يتصرفان في مثل هذه الأحداث المفاجئة.

المساحات التربوية التي ينبغي أن تُعطى للابن، أشبه بالمساحات المفتوحة التي يحتاجها الأبناء ليركضوا فيها من أجل إخراج الطاقات الحبيسة التي يؤدي حبسها إلى الانفجار، والذي يعبر عنه الابن بنوبات من الغضب أو العناد أو العبث، مما يوجد بسببه بيوت يملؤها الضجيج حتى تكون مصدرًا من مصادر الإزعاج بدلًا من أن تكون مكانًا للراحة والسكون.

الابن الأول

حين يُرزَقُ الوالدان بطفلهما الأول، فإنها تجربة جديدة، وميدان حادث للتدريب، ولذلك غالبًا ما ترى الوالد قد استفاد من هذه التجربة الجديدة بتعديل مساره مع الابن الثاني ومَن بعده، فتجد أن ما كان يتصف به من الاهتمام المبالغ فيه والرقابة اللاصقة نحو هذا الابن، يبدأ يَخِفُّ تدريجيًّا مع الابن الثاني، فيُتْرَك له نطاق أوسع في إدارة تصرفاته ومجريات حياته، كما أن ذلك يرجع عليهم بممارسة دورهم التربوي مع الابن بكل ثقة، بخلاف ما كانوا يتصرفون به مع الابن الأول من خطوات يغشاها بعض التردد؛ لقلة الخبرة.

من أجل ذلك: ينبغي للمرء إذا رزق بأول أولاده أن يتصرف معه تربويًّا بعيدًا عن ردود الأفعال، وأن يستفيد من التجارب التي تحيط به؛ لأنه إنْ لم يفعل ذلك قاده ذلك إلى التخبط،

حيث يلتقي بابنٍ يبحث عن حريته بمفهومه الصغير، فيُكثر العبث، ويميل إلى الحركة واللهو، وقد يقوم بتصرفات تغضب الأب الذي لم تسبق له تجربة، فقد يعامله بقسوة فيكسره، أو يؤدبه بطريقة عنيفة تهز كيانه، وتحطم شخصيَّته، فما أجمل أن يتعامل مع واقعة الابن الأول بهدوء واستجماع فكر، حتى يوفق لسلوك الطريقة الصحيحة، وسبيل ذلك أن يضع نفسه مكان هذا الابن حين كان في مثل سنه، فيمتنع معه عما كان يسبب له الأذى، ويأخذ بما كان يتمنى أن يُعامَل به مما كان يستشعر فيه الفرح.

النفقة على الأبناء

النفقة على الأبناء من الواجبات المتحتمة على الوالد، ليس له خيار الامتناع عن ذلك ما داموا تحت رعايته؛ لأنه هو الذي يعولهم في حال عجزهم عن تولي الإنفاق على أنفسهم بسبب صغر أو حاجة، ومع ذلك لا ينبغي أن نناقش مثل هذا الأمر من ناحية الواجب؛ لأنه متقررٌ لدى الجميع، كما أنه أمر تدل عليه الفطرة الإنسانية، حيث إن المرء تحدوه الرحمة إلى الإنفاق على أبنائه، لكنا نتحدث عن هذا الموضوع من ناحية تأثير ذلك على تربية الابن، ودلالته على السلوكيات الحسنة، وإبعاده عن السلوكيات والأخلاق غير المحببة إلى النفوس، أو التي تؤدي إلى كسر شخصيته ونفسه؛ لأنه متى ما طمع المرء فيما في أيدي الناس؛ ذَلَّت نفسه وهانت عليه.

يجب أن يتعامل الوالد والوالدة مع مسألة الإنفاق على الأبناء

أنها مسألة مُتعَة، فإن الفرح الذي يرتسم على وجوه الأبناء وتظهر آثاره على نفوسهم وقلوبهم، ينعكس على نفسية الوالد الطبيعي، الذي يرى أن هذا الابن ما هو إلا انعكاسٌ لشخصه، وممثلُه في المجتمع، ولذلك يجب على الوالد الذي أنعم الله عليه ويستطيع أن يُغدِقَ على أبنائه ألَّا يتأخر عن هذا الفعل الممدوح شرعًا وعقلًا، ويجعل أبناءه في الدرجة الأولى من اهتماماته، ويكفيه لذة ما ترتب على الإنفاق على الأبناء من الأجر العظيم، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دينار أنفقته في سبيل الله، ودينَار أنفقته في رَقَبة، ودينار تصدَّقتَ به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلِكَ، أعظمُهَا أجرًا الذي أنفقتَهُ على أهلك**»[1].

فإذا جمعت إلى ذلك سعادتهم فيما يأتيهم من الخير منك وعلى يديك، اكتملت لك السعادة، وأسباب الفرح.

وتعجب من بعض الناس الذي وَسَّع الله رزقه، ومع ذلك يتعامل مع أبنائه بغاية البُخل في جميع مراحل حياتهم، مما يجعلهم منكسرين ومتطلعين إلى ما في أيدي الآخرين، والأقسى

---

(١) رواه مسلم (٩٩٥).

وقعًا على نفوسهم حينما يرون بعض أصدقائهم ممن هو في مثل مستواهم المَعِيشي، ومع ذلك يرى أباه وقد أعطاه ما يكفيه على حَسَب سِنِّه ومَراحِل حياته.

لا أذهب بعيدًا إن قُلت: إن بعض هؤلاء الآباء يعتذر أن صنعه هذا من باب المصلحة، وهو يكذب، بل هو البخل الشنيع، الذي تغَلَّب على فطرة الحنان التي تدعوه إلى الإنفاق على أبنائه.

من طَريفِ ما أَذكُر عن أحدهم يحدِّث يقول: كان والِدَيَّ وأنا صغير في مراحل الدراسة الابتدائية يعطونني مصروفًا صوريًّا آخذه معي إلى المدرسة، فإذا جاء وقت الفسحة وذهب الطلاب إلى المقصف ليشتروا، وقفت أتأملهم بانكسار، فهم يشترون ما يسُدُّون به الجوع، وأنا كُتِب عليَّ أن أنظر إلى هذا المصروف الذي لا يقوى على أن يشتري شيئًا، فأبقى أتأمل الوجوه، وأعيش الحُزن يومي الدراسي كله، حتى أرجع إلى البيت فآكل وجبة الغداء.

وأعترف أنني كنت أتقطع حزنًا حين أرى الأطفال وهم يأكلون ويمرحون، ولا يمنعني من البكاء قهرًا إلا الحياء من

زملاء المدرسة، وكان مما يؤلمني جدًّا أنني أرى أناسًا أعرف من مستوى أهليهم المعيشي أنه أدنى من مستوى أسرتي، ومع ذلك كانوا يشترون ويأكلون ويلعبون، وكنت أرى فرحتهم المرتسمة على وجوههم، بل وتيقنت بعد أن كبرت وميزت أن تلك الثقة التي كانوا يتمتعون بها، بسبب أنهم يعيشون كأقرانهم، فيشاركونهم أكلهم وشربهم وحديثهم، بينما كنت أنزوي عنهم حياء أن أجلس معهم وليس في يدي طعام.

ولا أكتمكم أمرًا، أنني بعد أن كَبَرْتُ ورزقني الله أبناء، ووسَّع الله عليَّ، أصبحت لديَّ ظاهرة -ولا أقول صدمة نفسية- وهي أنه إذا طلب منِّي أبنائي شيئًا من الأطعمة التي يحبها الأطفال، كنت لا أستهوي أن آتيهم بقطعة من كل نوع، بل آتي بكرتون من كل نوع، حتى إنَّ طفلتي الصغيرة كانت بسبب الملل من كثرة الأطعمة التي سئِمَت النظر إليها كانت تفتح الشباك، وتنادي أطفال الجيران، وترمي لهم بالحلويات والكاكاو والعصائر، وربما تستغربون إن قلتُ لكم: إنني رغم تقدمي في السن إلا أنني لا زلت أحب قطعة بسكويت معينة، كنت أرى الأطفال يشترونها من المقصف أيام دراستي، ولا أقدر

على شرائها بسبب المصروف البئيس الذي لا يسمن، ولا يغني من جوع، فكنت إذا رأيتها الآن أشتري منها كمية كبيرة حتى لو لم آكل إلا قطعة واحدة، وكأني أريد أن أطفئ نار اللهفة السابقة التي مرت بي حال الطفولة.

هذه القصة المضحكة المؤلمة تُبَيِّن الخلل في النظر إلى المصروف من قِبَل الوالدين، حيث نظروا إليه من ناحية الانتفاع البدني فقط، على أنَّ المصروف المدرسي وغيره، ليس الهدف منه فقط إشباع البطن، بمقدار ما يشارك الإنسان من حوله بأمرٍ يرى أنه مما يضفي عليه السعادة، خصوصًا في مراحل الطفولة، فإنهم يرون هذا المصروف والشراء به نوعًا من أنواع المرح، لكن المشكلة أن نظرة الأهل اقتصرت على كونه غذاء يشبع البطن دون الالتفات إلى أثره النفسي.

لقد بقيتُ عمرًا طويلًا أستعرض مشكلات الأبناء مع الآباء، وكان يأتيني كثير من الأبناء يشكون تصرفات والديهم، ومع ذلك أقول -ولعلي لا أبالغ- أنه لم يَمُرَّ بي أسوأ من بخل الوالد المقتدر على أبنائه.

إن البخل على الابن يجعله ذليل النَّفْس، والوالد مطالب

بأن يجعل أولاده أعزة رفيعين، ثم إنَّ هذا يُنَشِّئُهُم على خنوع النفس -وقدرات الناس وتميزهم يتفاوت- فلعلَّه بسبب بخل الوالد، وحاجة الابن يستميله بعض السيئين إلى ما لا يحمد من السلوكيات، ولو لم ينتج عن حاجته إلا انكسار نفسه لكفى به سوءًا، فكيف إذا كان أكبر من ذلك؟

أكرم وَلَدَك، فأنت ستُصاحِبُه زمنًا له أَمَد، ثم تفترقان بحيثُ يكون لكل واحدٍ حياتُه، ثم بعد ذلك لن تستطيع استدراك ما فاتك حتى لو أعطيت؛ لأنه كان يُريدُ منك في حال حاجته.

ومن الضروري معرفته أن ما يُعطى للأبناء يختلف من عمر إلى عمر، فالصغير ليس كالشاب، وعليه فلابدَّ أن يُعطى ما يكفيه، فلو جاءك ابنك يريد أن يذهب إلى نزهة مع أصحابه، فيحتاج إلى أن يلعب ويشتري وجبة طعام، فلا يعقل أن تعطيه مصروفًا لا يكفي إلا لشراء عصير من دكان، بل أعطه ما يكفيه حتى يستمتع؛ لأن سعادته من سعادتك إذا كانت فطرتك سوية.

كما يجب إن أعطيت ابنك ما يَسعد به أن تجنِّبه المحاضرات المملة: «أنا كل أسبوع أعطيك، استَنفَدتَ مالي، أنت تصرفُ أكثر مني»، وأمثال هذه العبارات المملة، فهو ذاهب ليفرح

فلا تحزنه بسهامك المؤلمة، أعطه وادعُ له، وارجُ من الله الخلف، وأوصه على نفسه.

واحذر من أن تعطيه مبلغًا دون أصحابه، فيحتاج إليهم فيثقل عليهم، بل أَغْنِهِ عنهم، ولا تترك لهم مجالًا ليتفضلوا عليه، بل من المستحسن أن تُعطِيَه فوق ما طلب، وتستغل هذه الفرصة للتوجيه، فتقول: «لعل بعض أصحابك يحتاج فلا تُقصِّر معه»، ففي هذا تربية على الكرم وجود النفس، أو تقول له : «السائق سينتظرك طويلًا، فأدخله معك إلى مكان مناسب واشتَرِ له طعامًا».

وحتى لا تستكثر مبلغًا دفعته وتُرَوِّض نفسك على البذل، احتسب كل ما تعطيه لابنك عند الله، فما تبذله له من أعظم القربات، ومن أبواب الصدقات، وقد جاءت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: يا رسول الله، هل لي من أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم، ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بني؟ قال: «**نعم، لك أجر ما أنفقت عليهم**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٥٣٦٩)، ومسلم (١٠٠١).

وقال سُفيَانُ الثَّوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عليك بعمل الأبطال: الكسب من الحلال، والإنفاق على العيال»[1].

نحن نتحدث عن النفقة على الابن من باب التربية، وكيف يكون مجالًا لزرع الثقة في نفوس الأبناء، ولذلك لا تجعل أبناءك يحتاجون إلى غيرك وأنت قادر على أن تُوَفِّر لهم ما يحتاجون إليه.

نعم، نحن ضد الإنفاق غير المَدرُوس الذي يؤدي إلى استهتار الابن واتكاليته، لكن لا نجعل هذا عُذرًا للبخل والتقصير على أبنائنا، فالاعتدال مطلوب، ولا نبقى ندور في فَلَك الأعذار حتى نستخرجها كرهًا لنُبَرر بُخلَنا على أبنائنا.

وقد رأيت في هذا الزمان عجبًا، من أناس يقومون بدور الكرماء مع الأجانب باقتدار، يفعلون ذلك رياء وسمعة، ليُمدحوا على كرمهم المزيَّف، بينما هم من أبخل الناس على أبنائهم وأزواجهم حتى في النفقة الواجبة، وهذا من الفهم المغلوط للكرم، فإن أولى الناس بكرمك أهل بيتك -أبناؤك

(١) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٦/ ٣٨١).

وزوجك-، فنفعهم لك، وحبهم لك، وأُنسُهم بك، وأُنْسُك بهم، وأنت ملاذهم بعد الله، وقد جعل العلماء العقلاء بخل المرء على أولاده دليلًا على خبث عمله، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رأيتم الرجل يقتر على عياله، فإنَّ عمله بينه وبين الله تعالى أخبَث وأخبَث»[1].

وهذا ليس دعوة للبخل مع الناس، وأن يكون المرء قاصرًا عن فعل الأخيار، لكن من باب التنبيه إلى الفهم المغلوط القائم على الرياء والسمعة، فما فائدة مدح الناس لك بالكرم وأنت تعلم أنك بخيل على أولادك، وإن أعطيتهم؛ أعطيتهم عطاء المكرَه بلا نفس، أو زدت على ذلك بالمَنِّ والأذى والتعيير في أمر هو من واجباتك كأب.

الأبناء ضحكات العمر، وأنس النُّفوس، وثمرات المستقبل، والزرع الذي نرجُو نتاجه، والبذر الذي نرجو أن يثمر، فلابد أن نتعاهَدَهُ بالرعاية ليعود باسقًا نَضِرًا.

(١) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٦/ ١٧٨).

العدل بين الأبناء

بالرغم مما يَجري بين الإخوة والأخوات من معارك طفولية، وصراخ مزعج، وشكاوى متكررة، إلا أنه يبقى بعضهم محتاجًا إلى بعض نفسيًّا واجتماعيًّا؛ ولذلك يجب على الوالد أن يُنمِّي بينهم روح الأُلفَةِ والمَحبة والوِئَام، ويبتعد عما يكون سببًا في بَثِّ رُوحِ القطيعَةِ والشَّحنَاء.

ومِن أعظَم الأُسُس التي تُنَمِّي أوَاصِرَ الأخوَّة وتُحافظ عليها: العَدل بَينَ الأبنَاء، فيجب على الوالد أن يكون عادلًا بين أبنائه في المُعَاملة المادية والمعنوية، فإنَّ هذا ينشِّئهم على الاستقرار النفسي والسكينة والتآلف والاحترام، كما أنَّ ذلك يسهِّل انقيَادَهُم إلى ما يُريدُه الوالد من السلوكيات.

إنَّ الوالدَ أو الوالدة الذي يُميِّز بعضَ أبنائه على بعض قد وضع أول لبنة في جدار الحِقدِ والغَيرَةِ الذي لن يزال يكبر

ويُشيَّد إلا أن يشاء الله، فإنَّ من عادة الابن مهضومِ الحق المادي والعاطفي ألَّا يقبلَ بهذا التصَرُّف، وحتى لو تغلَّب على نفسه ظاهريًّا ألَّا يُبدِي امتعاضه من هذا الجَوْر؛ فستبقى له ترسُّبات خطيرة ربما تظهر عند أول احتدام أو تَصَادم، وهذا فيما لو كان الابن الذي ظُلِم أو هُضِم حقُّه غير مستحق للتميُّز في نظر الوالد؛ نظرًا لسلوكياته غير السَّوية، فكيف إذا كان شخصًا مميزًا ناجحًا قد استوفى علامات النجاح، ومع ذلك يَهضِمُ الوالدُ حقَّه لصالحِ أخٍ فاشلٍ في جَوانِبَ كثيرة من حياته إن لم يكن كلها؟!

يجب على الوالد أن يعامِلَ أبناءه بميزان الإنصَاف، ويحرص أشد الحرص على ألَّا يفرق بين أبنائه في المعاملة، حتى لا يزرعَ بينهم الأحقادَ والضَّغائن؛ ولذلك جاء في السُّنة النبوية التحذيرُ من التفريق بين الأبناء في المعاملة، كما في حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أعطاني أبي عطيَّة، ثم أتى بي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليُشهده، فقال: «**يا بشير، ألك ولد سوى هذا؟**» قال: نعم، فقال: «**أكلُّهم وهبتَ له مثل هذا؟**» قال: لا، قال: «**أليس تريد منهم البر مثل ما تريد من ذا؟**»قال: بلى، قال:

«فلا تُشهِدنِي إذن، فإني لا أشهَدُ على جَوْر، اتَّقوا الله واعدِلُوا بين أولادِكُم»[1].

وبلغ حرص السلف على العدل بين الأبناء غايته، حتى قال إبراهيم النَّخعي: «كانوا يستحبون أن يعدِلَ الرجُل بين ولده حتى في القُبَل»[2].

ونحن لا نُخالف الواقع حين نقول: إن بعض الأبناء قريب من نفس والده، رُبما لبِرِّه، أو مُشَابَهة طِبَاعه، أو سلوكه الحسن، بل وأحيانًا قد لا يتميز هذا الابن بأيِّ ميزة ومع ذلك يكون قريبًا من نفس والده، ومع ذلك فإن الوالد الحكيم لا يظهر تمييزَه له أمام إخوانه، فيكثر المدح له، أو يفضِّله ماديًّا، أو يَخُصُّه بالعطايا، فإنَّ هذه التصرفات نظير السِّهام التي تَنفُذُ إلى القلب فتقتُل.

قال العَلَّامة عبدُ الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يتعيَّن على الإنسان أن يَعدل بين أولاده، وينبغي له إذا كان يحبُّ أحدهم

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٠)، ومسلم (١٦٢٣).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٩٩٥).

أكثر من غيره أن يُخفِيَ ذلك ما أمكنه، وألَّا يفضِّله بما يقتضيه الحب من إيثار بشيء من الأشياء، فإنه أقرب إلى صلاح الأولاد وبرِّهم به واتفاقهم فيما بينهم؛ ولهذا لما ظهر لإخوة يوسف من محبَّة يعقوب الشديدة ليوسف وعدَم صبره عنه وانشغاله به عنهم، سَعَوا في أمرٍ وَخيم، وهو التفريق بينه وبين أبيه، فقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف:٨-٩]، وهذا صريحٌ جدًّا أن السبب الذي حملهم على ما فعلوا من التفريق بينه وبين أبيه هو تميزه بالمحبَّة»[(١)].

يجب أن يبتعد الوالد عن التصور الخاطئ أنَّ كون الابن ابنًا، فهذا يعني المِلكيَّة التامة، وعليه أن يَرضَى بكل ما يصدر عن والده من تَصَرُّفات، أو يتقبل كل سلوكياته ولو كانت خطأ، فهذه مَنزِلَة البارِّين، ولن يَبلُغَهَا كلُّ أحد، ومع ذلك

(١) «فوائد مستنبطة من سورة يوسف»، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (ص٢٠).

لو وفق الله الابنَ إليها ظاهريًّا، فإنه يعيش في باطنه صراعًا مَرِيرًا، لأنه مهما يَكُن، يبقى كتلة من المَشاعر.

التقيتُ بأشخاص كثيرين يشكون هذه القضية، رغم أنهم متماسكون ظاهريًّا أمام آبائهم أو أمهاتهم، لكنهم مُحَطَّمون داخليًّا، مُدَمَّرون نفسيًّا، وأشدهم شكوى مَن توفرت فيه علامات النبوغ والنجاح، ومع ذلك هو مُهَمَّش عند والده أو والدته.

بعض الرجال إذا طَلَّق امرأة وتزوج بأخرى ومال إليها، تعَدَّى ذلك أن يعامل أبناءه من المُطَلَّقة معاملة قاسية، وكأنه يجب عليهم أن يدفعوا فاتورة فِرَاق الأم، أو أنه يجامل الثانية على حساب أبنائه، لعلك تجدني قاسيًا في وصفي لهذا الأب الظالم، لكنَّني لا أجد عيبًا في أن أصفه بأنه «**لَيسَ بِرَجُل**»، فالأبُ يجب أن يكون حِصنًا لأبنائه وبناته، يحميهم من الآفات، ويَصُونُهم من التنَقُّص، فكيف إذا كان هو المعول الذي يَهدِمُ فيهم كُلَّ جَميل؟!

وأنا فِي رأيي: أنه لو ميَّز بعض أبنائه بسبب ميوله النفسي

أو الشخصي، فهذا على قسوته أهون من أن يُفرِّق بين أبنائه بسبب أنَّ أمَّ هؤلاء مُطلقة، وأم الآخرين لا تزال في عقد الزوجية.

ذات مرةٍ التقيت بشاب حزين، فسألني قائلًا: أنا آتى كل يوم إلى والدي في مَجلسه الدائم بعد العصر، فأُسلم عليه وأُقبِّله، ولكنني أقسم بالله كم أحاول أن أقول له: كيف حالك؟ فأكاد أشرق بها، فأسكت، فهل عليَّ إثم لأني لا أتحدث معه؟

قلت: ولِمَ هذا التصرف؟ قال: لأنه طُول عمري كان يظلمني، لأن أمي طُلِّقت، وتزوج أخرى، وأنجبت بنين، فكان يُفَرق بيني وبين إخوتي، رغم أنني ناجح ومميز، وأرى في نفسي أنني أفضَلُ من إخوتي.

أجبته بما يجب عليه فعله من البِرِّ والإحسان، **ولكن بقي في ذهني السؤال**: لماذا يرى بعضُ الآباء أنَّ من المُفترض على أبنائه أن يُحِبوه، رغم أنه لم يَسْع إلى كَسْب أسباب المَحبة؟

وهل فكَّر بعض الآباء والأمهات بمعنى كون ابنه لا يُحبه؟!

وكفى بذلك مصيبة!

يكفي بعض الآباء والأمهات ألمًا أن يستشعر -لو كان يشعر- أن ابنَهُ لا يُحبُّه!

لا ينبغي لوَالدٍ ووالدة أن يكون مَصدرَ ألمٍ لأبنائه في مَسألة يظنها هَيِّنة وهي ليست كذلك، وأحيانًا قد يتَصوَّر أنها لا تتعدَّى كونها كَلماتٍ عابرة، لكنها تُبقي أثرًا مُحبِطًا للنُّفوس، جارحًا للقُلوب!

أحدُ الشَّباب البَارِّين يقول: سافرتُ مع والدتي، وكنت أدفعها وهي مُقعدة على كرسي، فقالت لي: «فلان -تعني أخي- أفضل منك»، ابتسمتُ في وجهها، لكن لا أنكر أن كلمتها سببت لي شعورًا كبيرًا من الحُزن؛ لأنني كنت بارًّا بها، وكان أخي على خلاف ذلك.

إن بعض الكلمَات كالسِّهام، ولا شك أن بعض الناس لا يشعر بقسوة عباراته، لكن فعلًا هي قاسية ومُؤلمَة.

وأُخرى تحدِّث: كنت صغيرة حين أراد والداي السفر، وكنت واقفة مع أخي وأختي لتوديعهما، فقال والدي: كيف سأسافر؟ سأشتاق إلى فلانة -يعني أختي- ثم احتضنها،

فردت عليه أمي: ولكني سأشتاق إلى فلان -تعني أخي- ثم احتضنته، ولم يذكراني بكلمة، هأنا قد بلغت الأربعينات، ولم أنسَ حرارةَ وألمَ ذلك الموقف وتلك العبارات.

قد يقول قائل: يجب أن نكون أكثر تماسُكًا، وأشد قوة، نقول فعلًا، لكن الواقع يحكي أن الناس يختلفون في المشاعر، وقد لا تظهر ردودُ الأفعال إلا متأخرة، وقد تكون مُلازمَة للشخص فتأتيه أوقاتٌ تخرج فيها إلى أرض الواقع، وسَمِّها إن شئتَ: انكسار دَفين ينتظر شعورًا مشابهًا حتى يبين.

تذكَّر دائمًا: حتى الأطفال يحملون مشاعر، ويميزون، فكن دقيقًا في تصرفاتك، لا تزرع في قلوبهم مشاعر الغيرة والحزن دون تمييز منك!

أحدُ الأصدقَاء يَقُول: كنت مُعتادًا أن أدور على أبنائي إذا دخلوا سرائرهم وقت النوم، فأقبِّلهم واحدًا واحدًا، وذات مرة قمت بتقبيلهم، ونسيتُ ابنتي الصغيرة فلما أردت الخروج من الغرفة رأيتُها تبكي بصَمت، فاقتربتُ منها، وقلت: ما بال الجميلة تبكي؟ قالت: قبَّلت إخوتي ولم تُقبِّلني، فاحتضنتها

وقبلتها، وواسيتها وبيَّنت لها أنني نسيت، حقيقة لم أكن أظن أن الطفل دقيق إلى هذا الحدِّ.

هذه الأمثلة هي مُجَرد عينات تبين لك أنَّ الابن ربما لا يتكلم، لكن يحس ويشعر ويتألم.

وفي المُقَابل: هناك من يَصرُخ ويسبب نوعًا من الفوضى، وربما يتساءل الوالدان عما حلَّ به، ولا يعلمون أنه نوع من التفريغ بسبب ما يُعَانيه من التمييز والتفرقة ورَفض الظلم.

وقد تكون ردَّة الفعل أقسى وأشد، حيث يقوم الابن بمناقشة والديه بطريقة فَظَّة، ويبين لهم رفضه للظلم، وقد يكون ذلك سببًا لقطع جذور التواصل، أو العقوق، خصوصًا إذا بلغ الابنُ درجة الاستغناء عن والديه، وأصبحت له حياته الخاصة، فالبر فضيلة لا يبلغها أيُّ أَحَد.

ولا يُهوِّن أحد من جريمة العقوق، ولا ينبغي أن نعطي المُبَررات لها، لكن في الوقت ذاته ليس للوالد أن يفتح على أبنائه باب الذريعة ليتَجَاوَزُوا المَألوف ويُعينهم على ذلك.

ومن المُهِم أن أذكر: أنني كنت دائمًا حينما يأتيني بعض

الأبناء يشتكي من تفريق والديه بينه وبين إخوانه في المعاملة، أو أنهم يقومون بظلمه لأي سبب، **كنتُ أقول له**: بدايةً احمد الله رغم ألمك، فقد جاءك درس بالمجان، فتعرُّضك لما تراه من النقص، يُعطيك درسًا في كيفية التعامل مع أبنائك، حتى لا تكرر نفس الخطأ معهم، فلو لم تمر بك هذه التجربة ربما تقع في نفس المحظور، ولا يُعلِّم الناس مثل التماس التجارب أو خوضها.

ولذلك كنت أعجبُ -وقد رأيت ذلك بعيني- من أناس كانوا يشكون جور الوالدين، فلما صاروا آباءً وأمهات، بدلًا من أن يستفيدوا من الدرس الذي مرَّ بهم إذ بهم يُكرِّرون نفس الظلم على أبنائهم ويفرقون بينهم، وكأنهم يريدون الانتقام من الآباء والأمهات من خلال الأبناء!

على أن الابن يجب عليه أن يكون بارًّا بوالديه، **وأن يعلمَ أن البِرَّ هو الصَّبر على الأذى، وليس كف الأذى**، فقد تكون تصرفات بعض الآباء والأمهات بسبب مرض داخلي لا يظهر، كاختلال هرمونات، أو قلة خبرة في الحياة، أو سلوك شخصي؛ كضعف شخصية أو قلة إدراك، فيَبَرُّ والديه بما استطاع، ويحرص على ألَّا يكون شخصية مشابهة لما رفضه على أرض الواقع.

وعلى كُلِّ حال: فإنه من المفترض أن يكون الوالد بلسمًا لجراح أبنائه، مُعِينًا لهم على الاستقرار العاطفي في فترة مصاحبته لهم قبل أن تكون لهم حياتهم الخاصة، وعليه، فليحذر أن يسلك هذا السلوك الذي يفتح عليهم باب الإحباط وشعور الانكسار.

تأديب الابن

ممَّا يُقَرِّره المتخصصون بتربية الأبناء: أن الأصل في تربية الأبناء **العَاطفَة**، وأن التهذيب السليم يقوم أساسًا على الحب والاحترام المُتبادَل بين الطفل والوالدَيْن، أما العقاب فهو أمر عارض يُستخدم عند الضرورة القصوى؛ كي يعيد الطفل إلى الطريق السَّوي[1]، **ويَعنُون بذلك**: أنه ما دام الشيء عارضًا؛ أي: مؤقتًا بوَقتٍ، فلا يُعطَى أكثر مما يستحق، **ولا يكون على الدوام؛ لأنه إذا تعومل معه على هذا النحو؛ كان وسيلة إفسَاد أكثر منها إصلاحًا**.

قد يحتاج الأبناءُ أحيانًا إلى العقوبة حتى ينثنوا عن بعض السلوكيات غير المرغوبة، ومع ذلك فلابدَّ من مراعاة أمور

(١) انظر: «مشكلات الأطفال في أطوار نموهم» (ص١٥٩).

أثناء تطبيق هذه الخطوة، حتى تؤتي ثمارها؛ لأن القصد من التأديب والعقوبة ردُّ الابن إلى طريق الصواب، وليس إهدار كرامته وكراهته، **ولذلك ينبغي أن يشعر الابن -وحتى حال إيقاع العقوبة به- أن هذا الأمر يُراد به إصلاحه**، وأن الدافعَ له مَحبته.

ولا نُبالغ، قد لا يَفهَم الابن في حينه أن هذا هو المراد من تأديبه، ولكن بعد أن تظهر عليه علامات النجاح، وسَبْق الأقران، سيعرف أن العقوبة التي وقعت به كانت تُخفِي وراءها قلبًا كبيرًا مُفعَمًا بالحَنَان.

ولذلك لا شيء يَمنع من أن تُؤدِّب ابنَك، ورُبما تحتاج إلى ضَرْبه، ولكن ينبغي ألَّا يتعَدَّى ذلك المقدار الذي يصلحه ولا يفسد عليه حياته، فالضرب وسيلة لمنع الابن عن مساوئ السلوك ومخالفة الأخلاق، ومع ذلك لابد أن يستشعر المربي أنه وسيلة للإصلاح، فلا يتجاوز القدر، ولابدَّ أن يستحضر أنه يريد إصلاح ابنه؛ حتى لا يتحول إلى وسيلة تعذيب، **ولذلك نبَّه علماءُ نفس الطفل أنه إذا احتاج الوالد إلى الضَّرب، فعليه أن يكتفي به ولا يُهاجمه بالألفاظ الهجُومية المُشينة أثناء ضَربه، فالمقصودُ تقويمه لا إهانته.**

ولو ضربه فلا يكون ضربًا مُبَرِّحًا يترك أثرًا على الجسم، فهذا ابنٌ يحتاج إلى الإصلاح، وليس عدوًّا يُراد تنكيله.

نحن لا ننكر أن الضرب وسيلة للتأديب، ولكن لا نجعلها وكأنها وسيلة لتصفية الحسابات، وتفريغ الضغط النفسي الذي يمر به المُرَبِّي خارج المنزل، وهكذا، بل المراد منها التقويم.

وقد كانت صفية بنت عبد المطلب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا تضرب ابنها الزُّبَير بن العوام رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، فقيل لها: إنك تضربينه ضرب مُبغِضِهِ، فقالت:

مَن قَالَ قَد أبغَضتُهُ فَقَد كذَبْ   وإنمَا أَضربُهُ لِكَي يَشِبْ

ويَهزِم الجَيشَ ويَأتِي بالسَّلَبْ(١)

هكذا كانوا يتعاملون مع الضَّرب؛ ليكون وسيلة لحمَايَةِ الأبناء، وليس عقوبَةً تجعل الابن مَهزُوزَ الشخصية، مُحبَط الشعور، فإن بعض الوالدين يُفَرِّغ عُقَدَه النفسية في أبنائه، فيضربهم على كل خَطأ، صغيرًا كان أو كبيرًا، حتى يَعُودوا بسبب

(١) انظر: «شرح أدب الكاتب»، لابن قتيبة (ص٨١).

ذلك ضعيفي الشخصية، غير قادرين على تمييز الأمور، ولا يُفَرِّقون بين الخطأ الصغير والخطأ الجسيم.

من خلال حوادِثَ مؤسفةٍ صغيرة بإمكان الأطفال أن يتعلموا دروسًا مهمة بالقيَم، يحتاج الأطفال أن يتعلموا من والديهم التمييز بين الحوادث التي هي مجرد حوادث مزعجة، وبين تلك المفجعة والمأساوية، لكن مع الأسف يقوم العديد من الأهل بردة فعل تجاه بيضة مكسورة مثلما يفعلون تجاه ساق مكسورة، وتجاه زجاج نافذة مُهَشم كما يفعلون تجاه قلب مُحَطَّم، يجب أن تعيَّن الحوادث المُؤسِفَة التافهة كأشياء تافهة للأطفال[1].

الابن ليس عدوًّا، بل هو فِلْذَةُ الكبد الذي تريد أن تُفَاخِرَ به الأصدقاء، وتُرغِمَ به أنوفَ الأعداء، فكيف تصلُ به إلى هذه المنزلة وأنت تُحطِّم شخصيته، وتجعله مضطربًا غير قادر على تمييز الأمور، تختلط عليه الوقائع، وتجعل تأديبك الجسدي القاسي أكثر من نُصحِكَ اللفظي الهادئ.

---

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٥٣).

لابُد من الحَذر من الإفراط بالتَّأديب الجَسَدي، وكَتْم حريته بالتعبير والرفض لما لا يرغبه ؛ فإن هذا يُوَلِّد أخلاق السوء؛ من الكذب والاحتيال بُغيَة الخلاص من العقوبة غير المتزنة، أو الظالمة.

قال ابن خلدون: «من كان مرباه بالعنف والقهر من المُتَعَلِّمين أو الخدم، غلب عليه القهر، وضاقت نفسه، وذهب نشاطها، وحمل على الكذب والخبث، خوفًا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلَّمه المَكرَ والخديعة لذلك»[1].

وقد يحتاجُ الأب بين الفَيْنَةِ والأخرى إلى توجيه ابنه وتأديبه، وربما يقسو عليه في بعض العبارات، لكن مَهما يكن من شيء فلابد أن يسعى لأن يكون هذا التأديب فيما بينه وبين ابنه وليس أمام الناس، وهذا ما يمكن تسميتُهُ بالتأديب الانفرادي، **فالتأديبُ أمام الآخرين مما يكسر نفسَ الابن، ويُسَبب رَدَّة فعل غاضبة، وربما يزرعُ حَاجزًا بينه وبين من شَاهَدُوه على هذه الحال، والأشدُّ وقعًا أن يكون هذا الزجر والتأديب**

(١) «تاريخ ابن خلدون» (١/ ٧٤٣).

-وربما الإهانة والضرب- أمام شخص يُحبه الابن أو يُصَاحبه، فإن هذا مما يكسر خاطر الابن، ويزيد حُزنه، ولذا من المستحسن حال خطأ الابن أن يذهب الأب إلى التأديب المنفرد، وليتذكر دائمًا أن التأديب يُقصد به رد الابن إلى جادة الصواب لينجح، وليس المقصود هدم شخصيته وإهانته.

اللطف بوابة القلوب

نبَّهتُ مِرَارًا إلى أن تلطيف العبارات مع الأبناء لا ينتج عنه بالضرورة الصورة المرسومة عند البعض بأن ذلك سيجعلهم ناعمين غير جَادِّين، فتجد بعض الآباء غليظ العبارة قاسي الطبع، حواره مع أبنائه يقوم على الزجر والتهديد وعدم الاحترام، **وحتى نكون أكثر واقعية**: فإن تصرفات بعض الآباء بهذه الطريقة لا يلزم أن يكون سببه أنه يريدهم أن يكونوا أكثر صَلابة، لكن هو نوع من عدم الإدراك من قِبَل الآباء بقواعد التربية، أو عدم المبالاة، أو -وهو الأقسى- بسبب نزع الرحمة، أو احتوائه على عُقَد داخلية تنفجر في وجوه هؤلاء الأبناء.

ترى الكثير يُحسِّن لفظه مع البعيدين بأكثر ما يستطيع، ليَصِفُوه بحُسْن الخُلُق وجَمَال الأسلوب، فإذا واجه أهل بيته وجدتَ نَفسيَّة مُغَايرة؛ صُرَاخ وعويل، وعبوس وجه، كأن

هؤلاء ليس لهم حق أن يسمعوا كلمات جميلة أو عبارات أنيقَة، ويجب عليهم أن يَقبَلُوا ذلك طواعية بدون تذمُّر!

الزوجة، والأبناء، والزوج، يملكون قلوبًا كبقية البشر، ويحتاجون إلى أن يستشعروا اللطف والأمان والهدوء، وهذا الرباط الوثيق الذي بينَهُم لا يَكفِي أن يَقبَلُوا التصرفات السَّلبية من بعضهم البعض بدون تفكير .

جميل من الوالدَيْن أن يُضفوا عبارات الحنان على البيت «أُحبك، اشتَقتُ إليك، أنتَ حبيبي، وغير ذلك من العبارات التي تُذِيب الجليد، وتفتح أبواب العلاقات، والولُوج إلى القلوب».

ومن الوَاقع المُسَلَّم: أنه كلما كثرت الأشغال والهموم احتاج المرءُ إلى عباراتٍ لطيفة تُنسيه ثقلَ ما تحمله من الأعباء.

في كثير من الأحيان لا يحتاج الناس منك إلا كلمة تخفف عنهم عناء ما يواجهون: «**أعانَك الله، أتعبنَاك، أكثَرْنا عليك**»، مثل هذه الكلمات كفيلةٌ بأن تُنسِي كل تَعَب.

يقول أحد الآباء: مرَّ بي يوم مُكتظ بالأعمال المتعبة طوال الوقت من بدايته حتى المساء، حتى أجهدت غاية الإجهاد،

فركب معي ابني الصغير، فقلت له وكأنني أشتكي ما مرَّ بي: لقد تعبتُ اليوم تعبًا شديدًا، فقال: «أعانك الله يا أبي»، يقُولُ: فوالله كأنهُ أسقاني ماءً باردًا على ظمأ، فذهب تعبي النفسي من جَرَّاء هذا العمل الشاق من بدَايَة اليوم، لأنني أحسَستُ أن هناك مَن يشعر بي.

فإذا كان الكبارُ يحتاجون إلى عبارات اللطفِ وكسر الحدَّة، فالصغار من باب أَوْلَى.

إن الإغداق بعبارات اللطف والمَحَبة مما يؤدي إلى الاستقرار العاطفي عند الأبناء، فلا يحتاجون إلى سَمَاع هذه العبارات من شَخص أجنبي، ورُبما يريد أن يتَوَصَّل من خلالها إلى قلب الابن ليُحَقق منه هدفًا.

وقد وضع بعض المختصين قاعدة تُعِينُ على تحسين السلوك مع الابن، بمُعاملته كأنه شخص أجنبي عنك، كيف تكون طريقتك معه باختيار الألفاظ والتَّدقيق على العبارات وفلتَرتها حتى تكون دقيقة محسوبة لا يأتي منها الخلل؟ فينبغي أن يُتعامل مع الأبناء وفق ذلك، وهذه قاعدة من المستحسن الالتفات إليها.

إنَّ حُسنَ الخلق طبيعة لا تخضع للماديات والمصالح، كما يجب أن يُعرف أن أولى الناس بنفعك هم أقربهم، وكون الإنسان كثير التواصل معك لا ينبغي أن يؤدي ذلك إلى فتور العلاقات حتى تقتصر معه على الواجب فقط، بل والبعض قد يُفرِّط حتى في الواجب، حتى عادت حياته كئيبة ليس فيها أثر للتَّجديد.

المُشكلة الكبرى أن كثيرًا من الناس لا يعرفون مدى تأثير الكلمات على الآخرين، فكما أن الكلمة الشنيعة تُدمِي القلوب وتَجرَحُها، وتكسر الخواطر وتُؤلمها، فكذلك الكلمة الجميلة تكون بلسمًا للجراح، مُخَفِّفة للآلام.

أرأيت من يُعزِّي آخر في مصيبة حلت به، هل رفع عنه المصيبة؟ هل أعاد له ما فُقد؟ هل جبر له ما انكسر؟ لا، لكنه جَبَر كَسْر خاطره بكلمات عذبة خففت عنه المُصَاب، حتى بقي قادرًا على التماسُك والقيام من جديد.

الكلماتُ تقود إلى الإحباط العملي كما تدفع إلى التقَدُّم، هناك بعض الناس كان يتهمه من حوله بالفشل حتى صارت هذه بالنسبة إليه حقيقة مُسَلَّمة، فجاء من شجعه ربما بكلمة:

«أنت تستطيع، جرِّب، لا تتهم نفسك، لا تُهَاجم نفسك، غيرك ليس أفضل منك، أنت ذكي، حاول»، فإذا به وقد عَلَت هِمَّته بسبب كلمة، فرسم لنفسه هدفًا، ومرت الأيام فحقق هدفه، في الوقت الذي بقي فيه أولئك المُهَاجمون في أماكنهم.

ربما لم يَدُرْ في مُخَيِّلَتِهِ أنه سيكون بهذه المنزلة يومًا ما، ولم يتصور أن كلمةً ستُغَير حياته، ولكن كان ذلك.

فإذا أُطلِقَت هذه الكلمات المُشَجِّعة من قبل الوَالِدَين، لا شكَّ أنها ستكونُ أكثَرَ أثرًا.

تَذَكَّر دائمًا: الابن ليس عدوًّا، الابن انعكاسٌ لصُورَتك؛ فكيف تريد أن تكون؟

ضَع نفسَك مكانه، واستعرض الكلمات والعبارات التي تقولها له، هل سينتج منها ثمرات، أو أنها مؤلمة محبطة، تزرع الخوف وعدم الاطمئنان؟

فإذا جعلت ميزانَك على هذا النحو، اعتَدَلَتِ الكِفَّةُ، وتعَلَّمت كيف تُخَاطب، وماذا تستعمل من العبارات، وما الذي تَكُفُّ عنه؟

تَصَوَّر أنك تَقُود برفقة شخص تُحبه وقد أخطأت السير عند منعطف، هل يكون من المناسب منه أن يقول: «لماذا أخطأت المُنعَطَف؟ ألم تر الإشارة؟ هناك خلفنا إشارة كبيرة بإمكان أي شخص أن يراها»، هل كنت ستشعر في تلك اللحظة بدفق كبير من الحب؟ هل كنت ستقول لنفسك: إنني عازم على تحسين قيادتي وقراءتي لأنني أريد أن أرضي من أحب؟ أو ستكون مَدفُوعًا لأن تستجيب بشَكل جَيِّد؟

ما هو الشيء الذي يكون مناسبًا؟ التأوه العاطفي المُتَحنِّن: «أوه يا عزيزي! كم أن هذا الأمر مُخيِّب»، أو تعطي معلومة بسيطة فقط: «**هناك مَخرَج آخر قريبٌ من هاهنا**»[1].

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٥١).

التركيز على الإيجابيات وتشجيعها

يُعَدُّ الفرحُ بنجابة الابن وتقدُّمه من المشاعر الطبيعية عند الوالدين؛ ولذلك لابدَّ أن يلحظ الوالد التصرفات الحسنة التي تبدُرُ من الابن فيُشَجعه عليها، ويمدحه لأجل ذلك؛ لأن المدح بفعل الخير يؤدي إلى التمسك به والازدياد منه، **ومِن الأمور الفطرية في قلوب الناس**: أنهم يُحبُّون المدح، ويأنَسُون به، لكن من الضروري أن يكون المدح مُطَابقًا للواقع لا يقوم على المُبَالغة والمَدح المُبتَذَل.

ومن الجميل أن يُعبِّر الوالدُ عن إعجابه بفعل ابنه بالعبارات اللفظية الدالة على ذلك، ولا يكتفي بالتعبيرات البدنية كالابتسامة ونحو ذلك.

ومن المهم أن يكون المدح مُنصَبًّا على الفعل الذي قام به الابن، لا المدح للذات، فيقال: «أعجبني فعلك الفلاني، وسَعِدت

بتصرفك الفلاني»، ولا يُقال: «أنت بطل، أنت قوي...».

ويتجنب مقارنته بشخص معين؛ كقولهم: «أنت أفضل من فلان»؛ لأن الابن الذكي ربما يَفهَم من هذا التعبير أن فلانًا أفضل منه، فلا يألف مثل هذا الكلام لشعوره أنهم لم يقارنوه بفلان إلا لأنهم يَرَونَهُ أفضل منه، أو ربما يكون في الواقع هو أفضل من فلان، فيقول: «ومن فلان حتى يقارنونني به؟!».

ولذلك يؤكد علماء نفس الطفل على أن يكون المدح للصفات لا للذَّوَات، فمدحُ الصفة يجعلُ الابن لا يتحمل أعباءً إضَافيةً، عليه أن يحافظ عليها، فممكن أن يوفَّق مرة وأن يخفق أخرى فيتلقى ذلك بطبيعية.

بعض الناس قد لا يعرف تأثير كلمات المدح في النفوس، وما تُحدِثُهُ في نفس من قِيلَت له، خصوصًا إذا كانت موافقة للواقع، أو عند النفوس المنكسرة أو المضطربة، فإن كلمات المدح تَجبُر كسرها، وتلمُّ شتاتَها، **وخُذ مثلًا لذلك**: قد كنت أرى نجَابة بعض طلابي وطالباتي في الكِتَابة، فكنتُ أثني عليهم وأحثهم على المُوَاصلة، وبعضهم كان يزدري نفسه ويرى أنه

لا يستحق هذا المُستَوى من المدح، ثم بعد ذلك يعزم على الانطلاق، فكنت أرى أثر كلمات التشجيع عليهم من خلال الإبداع الكتابي الذي كنت أراه يقوى يومًا بعد يوم، بل وأحيانًا كان بعضهم يُقَدِّم لي كلمات كُتِبَت بعفوية؛ فأمدحه على ما تميزت به من تركيبات جميلة، وتناسق رائع، فتكون بداية الانطلاقة الجادة له، وهكذا، مدح أيِّ شخصٍ في جَانبٍ تميَّز به، يؤدي إلى زيادة إبداعه فيه، فيجب ألَّا يُغفل عن دور المدح والتشجيع على البوادر الطيبة أيًّا كانت، فكيف إذا كان هذا الممدوح هو الابن الذي تسعد بنجابته وتقدمه؟

التكليف بالمسؤوليات

تذكُر مُعظَم كتب تربية الطفل أنَّ أحد أهم أهدافنا بوصفنا آباء، هو: **أن نُعِدَّ أبناءنا للانفصال عنا، وأن نُسَاعدهم كي يُصبحُوا أفرادًا مُستقِلِّين، قادرين في المستقبل على تحَمُّل أعبَاء الحياة، والقيام بوظَائفهم دونَ عَوننا.**

ونحن مطالَبُون بألَّا نفكر بأولادنا على أنهم نسخة مِنَّا، أو امتداد لنا، بل على أنهم كائنات إنسانية مستقِلَّة، لها طباع وأذواق مُختلفة.

ولكن: **كيف لنا أن نساعدهم كي يصبحوا أشخاصًا مُنفصِلِين مُستَقلين؟**

ذلك بأن نسمح لهم بأن يَقُوموا بأعمالهم بأنفسهم، وبأن نتيح لهم مواجهة مشاكلهم، وبأن نتركهم يتعلمون من

أخطائهم[1].

سرعان ما تَمُر الأيام أمام عينيك كحُلْم، فإذا بذلك الطفل الذي تقوم بتربيته قد أصبح شابًّا له نَمَطُه الخاص في الحياة، وتفكيره، وأسراره، فالواجب أن تُعدَّ العُدة لذلك الزمان، حتى إذا بلغه عرف كيف يتعامل معه، لا أن يتفاجأ به، أو يصطدم بواقع جديد، لو حاول أن يتعلم كيف يتعامل معه حدثت له كثير من الإخفاقات.

من أجل ذلك: لابدَّ أن يُدرَّب الابنُ على تحَمُّل المسؤوليات التي تليق بعُمره؛ لأن هذا مما يُصقِلُ شخصيته؛ فيتقدم إلى الواقع الجديد بكل ثقة.

إنَّ تكليف الطفل -إذا أصبح مُمَيزًا- بالشراء، ومُخَاطبة الباعة وعمال المنزل إذا جاءوا لإصلاح شيء في حالة غياب الوالد، هذا مما يقوي شخصيته، وأمره أن يقوم ببعض الأعمال البَيتُوتية وتكليفه بذلك، كل هذا مما يُدرِّبه على أن يكون له دور فاعل، ومع ذلك فلابدَّ في بعض الأعمال أن يكون هناك رقابة

(١) انظر: «كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك» (ص١٩٥).

من بعيد، من أجل المحافظة على أمن هذا الطفل النفسي والجسدي، **فمَثلًا**: لا تترك الطفل الصغير ليذهب للشراء من دُكانٍ ما في وقت هدوء الرجل إلا إذا كنتَ أنت معه، فتأمره أن ينزل ويشتري ويُحَاسِب، فتدريبه في هذا المقام هو الأهم.

وإذا كُلِّف الصغير ببعض الأعمال لابد أن يَستحضِرَ المُربِّي قاعدتَيْن مُهمَّتَيْن:

الأولى: أَلَّا يُخرِجَه من إطار طفولته ويحمِّله أكثر من طاقته سواء البدنية أو النفسية، فبعض الناس بحجة أنه يريد أن يكون ابنه رجلًا، يجعله يعيش بنفسية رجل وهو لا يزال صغيرًا، فإذا به يصبح فردًا مؤذيًا لا يجيد اللعب مع الأطفال، يستثقله أقرانه، يكون طفلًا بأسلوب رجلٍ كبير، وهذا تدمير لشخصيته، فيكفي أن يلاحظ قدرته فيكلفه بما يُطيقُه وما يريد أن يدربه عليه دون كثير كلام أو أوصاف تجعله مضطرب الشخصية قد أضاع المسافتين بين الطفولة التي فارقها نفسيًّا، والرجولة التي لم يَبلُغها عقليًّا ولا بدنيًّا.

الثانية: إذا كلَّفت الابن ببعض الأعمال يجب أن تراعي

أن المسألة لم تزل في حَيِّز التدريب ليس إلا، ولذلك لو حصل منه شيءٌ من الإخفاق فلا تُعَنِّفه أو تهاجمه، فقط وَجِّههُ للأفضل، فلو اشترى سلعة بأغلى من ثمنها، يكفي أن تقول له: «لقد باعها لك بسعر غالٍ»، وتجنب قول: «ضَحكَ عَليك، استهان بك» وغير ذلك من الألفاظ التي تزيده حسرة وندمًا، ثم وَجِّههُ بكُل هدوء أن يكون أحرص في المرة القادمة، وقل: «لكن اختيارك للسلعة جَيِّد، كان جهدك مباركًا، لم أكن أظن أنك ستختار هذه النوعية الجَيِّدة»، وسيفهم من قولك: المرة القادمة، أنه نجح في مُهمته، وهذا يكفي لأن يشعر بالنجاح في مهمته فيدفعه لزيادة الحرص والتدقيق، وهذا من ثمرات توجيهك له حيث غرَستَ في نفسه الثقة.

لتَشجيع الاستقلال: دع الأولاد يختارون، أظهر احترامًا لمحاولاتهم وكفَاحِهم، لا تُكثِر من طرح الأسئلة وتستعجل الإجابة عنها، لا تُثبِّط الآمال، وشَجِّع الولد على استعمال مراجع أخرى خارج المنزل، وإذا قدموا على عملٍ ما فلا تقل لهم: «هذا أمر سهل»، فلابد من احترام جهد الولد، فقد كنا

نظن أننا نشجع الولد إذا قلنا له: إنَّ ذلك الأمر سهل، ولكنا الآن ندرك أننا إذا وصفنا العمل بأنه سهل، لا نقدم للابن معروفًا، فهو إذا نجح في فعل أمر سهل يشعر أنه لم ينجز الكثير، وإذا فشل فهو يفشل في فعل أمر بسيط، وفي هذا ضغط على مشاعره وتَغَافُل عما بذَلَهُ من جهد[1].

كن حَنُونًا على أبنائك، لكن لا تدمرهم بجعلهم اتكاليين على الغير، ينتظرون من يقوم عنهم بالأعمال، ويتحمل عنهم التكاليف، حتى لو كانت سَهلَة هَيِّنة، ولتعرف أن الإنسان قادر على تحَمُّل ما يُلقى عليه من التكاليف التي تَليقُ بعمره عليك أن تتذكَّر طُفولتك، وما كنت تتحمله من الأعبَاء، ومع ذلك سارت الحياة على نحو جيد، ولم يكن الوالد أو الوالدة مُبغِضِين لأولادهم، لكنهم كانوا واثقين بطريقة تربيتهم.

كان أحدُنا في المرحلة الدراسية الابتدائية ربما يسير كيلو أو كيلوين ليصل إلى مدرسته، والآن أحدنا يرسل ابنه مع السائق لمدرسة لا تتعدى ثلاثمائة متر، وقد يعتذر بعضنا

(١) انظر: «كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك» (ص٢١٨).

لنفسه أن الزمن تغيَّر وصارت الأمور ميسورة عن ذي قبل، ولكن لعل الدافع الفعلي لذلك أن المرء إذا كبر يرق قلبه لدرجة أنه يريد أن يتحمل عن أبنائه حتى التكاليف التي لا تشق عليهم، فإذا فعل ذلك متى يتدرب الأبناء؟ وكيف يعرفون أنهم سيواجهون يومًا ما واقعًا يتطلب منهم أن يعملوا ليعيشوا حياة طبيعية؟

رأيت بعض من أعرف وقد بلغ أبناؤه سن الرجولة والشباب، وهو قد كبر سِنُّه، ولا يزال إذا تعطلت سيارة أَحَدِ أبنائه إذ به يتنقل بين وِرَش التصليح!

ورأيت بعضَ الناس قد انتظم أبناؤه في الجامعة، ولم يزل هو الذي يقوم بتسجيل جدولهم الدراسي في كل فصل إلى أن تخرجوا من الكلية!

نعم، هذا من الحنان والرحمة، ولكنه يورث اللامبالاة التي تظهر آثارها على الأبناء بعد ذلك، سيتزوج الابن، ويكون له زوجة وأبناء، فيحتاج أن يتعلم في حال شبابه وطفولته أنَّ هناك من التكاليف التي لا يقوم بها إلا هو، فإذا لم يتدرب عليها فما الذي سيحدث؟

ثم إن الحركة للأطفال والشباب تُنَمي عندهم القدرة البدنية، وكذلك الذكاء العقلي؛ لأن التجارب تصقل العقول وتنميها، وتدرب المرء على خوض غيرها، ولذلك كَلِّف الأبناء، لكن مع مراعاة القواعد الناجحة بحيث لا تكلفه إلا ما يطيقه، ولا تخرجه عن طفولته، وكن مراقبًا له في بعض الأمور لتحافظ عليه، ولا تخذله إذا أخفق أو لم ينجح، فأنت تعده لما هو أكبر، فلا تكسره عند أول تجربة، وقد يتكرر الإخفاق من بعض الأبناء، فاصبر عليه، لأنه إذا كان المدرب الحنون الحريص ضيِّق الصدر على من يريد نجاحه، فغيره من باب أولى ألا يصبر على أخطائه.

ومن جَميل ما يُتعامَل به مع الابن في هذا الباب: أن تترك له مساحة كافية من النِّقَاش والاختيار، فربما تقول له: «افعل كذا، أو: اشتَرِ النوعية الفلانية»، فيخبرك أن هناك اختيارًا أفضَلَ، فلا ترفض ما قاله ابتداء، لتسليمك أن رأيك هو الأصوب، بل استمع منه حتى لو لم تأخذ برأيه، ليفهم أن رفضك ليس لعدم قبولك لكلامه، لكن لأنه تَرجَّح عندك أن هذا الاتجاه أفضل من اختياره، وربما يكون كلامه أصوب فَانْزِل عند رأيه،

فهذا مما يثمر الثقة في نفسه، وتذكَّر أنك لست دائمًا بجانبه، فتركك مساحة له ليختار يعينه على اختيار ما يريد عند عدم وجودك، ولو كان اختياره غير موفق، فنرجع إلى ما قررناه سابقًا: «لا تُخَذِّلْه ولا تُحقِّر اختياره»، فأنت تدرِّبه، وربما لست في مرحلة تدريب لكنك أخذت برأيه دون إجبار فلِمَ تُخذِّله؟

ثم إن العتاب والاستنفار لن يُعيد الماضي ويستدرك ما فات، فأكمِلْ مسيرك بكل هدوء.

ومع مطالبتنا بتكليف الأبناء على تحمُّل المسؤوليات حتى يتدربوا، لابد من التأكيد على مسألة مهمة، وهي: **أنه لا ينبغي أن يكلَّف الابن بشيء من ذلك في حال لَهْوِهِ أو لَعِبِهِ مع أقرانه،** فتقطع عليه لعبه لترسله إلى شيء، فإن هذا من المُحبِطَات، لأن النفوس تحتاج إلى استجمام، والمسألة ليست متوقفة عليه، فقد يقوم بها أي طرف آخر، ولذلك حتى إذا أردت تكليف ابنك الشاب بشيء، يجب أن تجعل له مساحة من الوقت بسؤالك: «هل عندك التزام في الوقت الفلاني؟ أريد كذا وكذا هل تستطيع أن تفعله؟»، واترك له مساحة كافية من الوقت، فيمكن أن يخبرك أنه سيقضي هذه الحاجة في الوقت

الفلاني أو الفلاني، فيكفي في مثل هذا أن تخبره أن العمل ينتهي الساعة الفلانية فلا تنسَ، فهنا قد تركت له مجالًا أن يختار متى يذهب.

ضع نفسك في مكان هؤلاء الأبناء، فأحيانًا نحن -معاشِرَ الآباء- يُفاجِئُنا الأبناء بطلب شيء ضروري ونحن مرتبطون بمَوعد أو عمل أو حتى وقت للاستجمام، فنَضِيقُ بذلك ذَرْعًا، خصوصًا إذا لم يتذكروا ما يريدون إلا في وقت متأخر من الليل، وأحدنا متعب يريد النوم، فتقول: لماذا لم تخبروني في وقت أوسع؟، فكذلك هؤلاء الأبناء، اطلب منهم، كَلِّفْهُم، لكن اجعل لهم وقتًا كافيًا من ترتيب جدولهم، حتى لو كان هذا الجدول وأعماله ليس من الأعمال الجادة، والتعامل بهذا الأسلوب من باب الرحمة بهم، ولترويضهم على ما تريد غرسه فيهم من السلوكيات والأخلاق؛ لأن الأساس الذي تقوم عليه المطالبة بالتكاليف والمسؤوليات يقوم على الرحمة والرِّفق، خصوصًا إذا كثرت الأشغال على هؤلاء الأبناء وتشَعَّبت، ورحم الله امرأً أعان ولده على بِرِّه.

ومما مَرَّ بي من الوقائع: أن بعض الأمهات -هداها الله- قد

تزوجت ابنتُها، وصار عندها بنون وزوج يأمرها بلزوم البيت للتفرغ لحياته وأبنائه، وإذ بهذه الأم تفرض على البنت أن تأتيها كل يوم، وتجلس عندها طويلًا، وهي لا تحتاجها أصلًا، حتى أفسَدَت حياتها مع زوجها الذي لَمْ يتفَهَّم الوضع.

لا شك أن البِرَّ خيرٌ ومطلوب، لكن في المُقَابل يجب ألَّا نكلف الأبناء من المسؤوليات ما لا يُطِيقُون، سواء من ناحية البدن، أو الوقت، أو الظروف المحيطة بهم.

التكليف بعوض

من الأخطاء الجَسِيمَة التي يفعلها بعضُ الآباء والأمهات: أنه إذا أراد أن يكَلِّف الابن بعمل معيَّن، سواء كان لمصلحته هو؛ من لبس ملابس، أو أكل، أو شرب، أو لكَفِّ صُراخِهِ وإزعاجه، أو القيام بعمل لمصلحة الوالدين، وَعَدَهُ إن فعل ذلك بالمكافأة المادية؛ كإعطاء نقود، أو أن يأتيه بهدية، أو أن يأخذه في نزهة، ونحو ذلك، وهذا خطأ، فلابد أن يتعلم الابن أن هذا مطلوب منه كواجب عليه، وليس عَمَلًا تطوعيًّا، فالوعدُ بالجزاء المَادي مقابل العمل يغرس في نفوس الأبناء الشُّحَّ بعمل الخير إلا بعِوَض، فيتحَوَّلون إلى أشخاص مادِّيين لا يُقَدِّمون شيئًا إلا من أجل المادة، والذلُّ للمادة بابٌ إلى ما بعده من الخَلَل، فيظهر عندنا أقوامٌ لا يعمَلُون شيئًا لله، بل لابد من مُقابل، **ولكي يستقيم حال الأبناء لابد أن يُغرس في**

نفوسهم، أن ما يقومون به من عمل حتى لو انتفع به الآخرون، فإن المقصود به طاعة الله وطلب رضَاه.

وهذه التربية المَتينة هي التي تحمي الأبناء، فلو كبروا ووجدوا جُحُودًا من الآخرين لم يَضِيقُوا ذَرْعًا ويتركوا واجباتهم؛ لأنه استقر في نفوسهم أنهم ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء وجه الله.

والجزاء المادي على عمل الواجب يجعل الابن يشعر وكأنه يتفضل بما يقوم به، وربما يستقر في نفسه أنه ليس بمُلزم بحدود لا تُتَعدى، ولا واجبات يجب أن يبادر إليها، وكفى بذلك فسادًا تربويًّا.

إن المُقَابل المَادي سببٌ للطَّمع وكَسْر هَيبة النفوس؛ حتى لا يستطيع الابن بعد ذلك أن يُمَيِّز بين ما يُشتَرى وما لا يُشتَرى، ولو نظرت إلى الشخصيات الناجحة المميزة في المجتمعات، وصفحات التاريخ؛ وجدت أن أكثر ما كان يميزهم القَنَاعَة، والبُعد عن الطمع، والعزة والأنفة التي يكسرها حبُّ المادة والسَّعيُ وراءها، **فيَجبُ ألَّا نُسَاهِم بتدمير أبنائنا ونحن لا نشعر من خلال غرس هذا المبدأ الخاطئ.**

ربما تظن أن هذا من قبيل المبالغات، ولكن إذا علمت أنَّ فترة الطفولة هي مرحلةُ غرسِ وزرعِ المبادئ؛ سَهُل عليك تصور هذه المسألة.

بين الحزم والهدوء

إن مِن التَّصَورات الخَاطئَة عند البَعض: ظنهم أن الأوامر الحَازمة لابدَّ أن تكون مُقَارنة للغَضَب، وأنه لا يُمكن أن يستجيب الابن لما يُراد منه حين يأمرُهُ والده وهو هادئ، وهذا تصور خاطئ، فإنه يمكن أن يتعامل الوالدان بالهدوء، ومع ذلك يكون الأمر الصادر منهما حازمًا.

إن من طبيعَةِ الأطفال المُعتَادَة: أنه كُلَّما كَثُر عليهم الإلحاح تَوَلَّد لديهم الرغبة بالعناد، فيتحول المنزل مكانًا للإزعاج والصَّخب بسَبَب أمرٍ يسير، كان يمكن التوصُّل فيه إلى ما نريد ونحن في قمَّة الهدوء.

من المُستَحسَن أن تكون الأوامر حازمة، لكنها تغلَّف بلباس الهُدُوء، وعمومًا فإن الطفل مع تَكرار التجارب وثبات الوالد على مَوقِفِهِ في أكثر من واقعة؛ سيتَرسَّخ لديه أن والده

لن يُغيِّر موقفه، لكن أيضًا ينبغي أن تقدم للابن جوانب من السلوكيات المساعدة التي تُشعِرُه أن ثَمَّة خياراتٍ أمامه، فقد يأمر الأب أو الأم أحد الأبناء بأمر فيتأخر عنه، فيقومان بمساعدته أو الأخذ بيده إليها فيُسَارع إلى عمل ذلك.

فلو أن الطفل جعل المكان ساحة لقطع الألعاب المُلقَاة، فقيل له: «تعال لنجمع هذه القطع سويًّا»، سترى منه حينئذٍ استجابة لما أمرته به؛ لأنه سيفهم أن هذا أمر وليس مجرد مُسَاعدة، خُصُوصًا إذا قرنتها بقَولك: «فقد جاء وقت النوم، أو نريد أن نجلس في غرفة نظيفة...وهكذا».

إذا استطعنا أن نُحَقق ما نُريد، ونكسبَ الهدوء والبُعد عن الضجيج، فهذا تصَرُّف يجب أن نُسَارِعَ إليه.

المشكلة أن البعض يتخذ الصراخ وسيلة لإرضاخ الأبناء، ومع ذلك سُرعَان ما تجده يتراجع عَمَّا أمَرَ به طِفلَهُ، أو لا يبالي بما أمره به، فَعَلَه أم لم يَفعَلْهُ، وهذا تصرف غير صواب قد يتسبب في إحداث الضوضاء والإزعاج، ومن جانب آخر سيرسخ عند الطفل فكرة أن الأب فقط سيَصرُخ ثم أفعلُ ما

أريد دون مبالاة بما قاله، ثم هو سيذهب وأبقى أنا على ما كنت أفعله.

ولذلك فقد تحدث بعض المتخصصين عن تربية السابقين من الآباء والأجداد، ولماذا كانت نتائجها واضحة المعالم، بعكس التربية في عصرنا وضعف نتائجها، **فبيَّن أن من أسباب نجاح الأولين فيما سعوا إليه**: أنهم كانوا يملكون الثبات على المبدأ والأمر والنهي حتى، وإن كانت هذه الأعمال من قبيل الخَطأ، بينما نحن ندخل إلى ما نريد تحقيقه وعمله ونحن في حالة تردد[1]، **فمن أجل ذلك**: كن هادئًا لمصلحة أعصابك وحياتك، **وفي المُقَابل**: حازمًا فيما تَطلُبه من الأبنَاء.

على أن الحزم المطلوب هاهنا لا يُقصد به الاستعجال بقول: «لا» أو: «نَعَم»، فإن هذه الكلمات لا تُقَال إلا بعد تفكير، ولكن على وجه السرعة؛ لأنها نتيجة حتميَّةٌ لطَلَب الابن، فإذا قُلتها لا يحسن بك أن تَتَراجعَ عَنهَا.

وأكثر الآباء والأمهات بِدَاعي الخوف على أبنائه، يكثر

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص١٣٠).

استعمال كلمة «لا» بدون دراسة أو تأمل، فتأتي كثيرًا في غير مَحَلِّها، وهنا يَحصُل الاضطراب والخَلَل، إن تراجع عن موقفه بعد أن تبيَّن له خطؤه خاف أن تكون سابقة سيحفظها الابن عليه، وإن ثبت عليه تولَّد عنه مشاعِرُ غاضبة، أو تصرفات مُزعِجَة من قِبَل الابن، أو على الأقل: إحساس الأب بالذَّنب.

إنَّ التعبير بـ «لا» لا يدل دائمًا على التربية السليمة، فقد يكون الأفضل هو ضدُّها من الاستجابة لطلب الطفل.

نعَم، من الخَطأ الاستجابة لجميع طلبات الأبناء بحجة أننا لا نريد أن نَحرِمَهُم من شيء، لكن أيضًا في المقابل ليس من الصواب أن نُكثِرَ المنع بدون إيجاد البدائل المسلية.

ويخطئ بعض الناس حيث يمنع ابنه من شيء وهو يعرف أنه سيوافق عليه في آخر المَطَاف، إذن لماذا تقول: «لا»؟!

مثال ذلك: أن يطلب الابن نزهة ليس فيها ضرر عليه، أو لعبة مُعينة، وتعرف أنه إذا أزعجك ستوافق على ذلك، فمِنَ الخطأ مَنْعُه، بل الأنسَبُ أنك تستجيب إلى طَلَبه من أول الأمر، بدون إحداث فوضَى أو تصرفات مزعجة، أو صراخ مُمِل،

أو بكاء متواصل؛ لأنَّ الطفل إذا عرف أنَّ هذا السلاح يُجدِي معك، سيستمر في تصرفه ذلك كلما رَفَضْتَ له طلبًا، كما أنه سيُولِّدُ عنده شعور عدم الثقة نحوك.

فمثلًا: لو أن الطفل أنهى ما يجب عليه، وبقي عنده وقت فراغ ليلهو به لهوًا مُعتَدِلًا بدون ضرر على بدنه أو وقته، فاستأذن ليلعب، فما هو وجه منعه؟ إن مَنْعَهُ في هذا المقام خطأٌ.

وفي المقابل: لو أراد أن يتصرف تصرفًا رأيت من المصلحة أن تمنعه منه، ، فلك أن تمنعه منه، ولا يشترط أن يكون سلوكًا سيئًا، ولعله سيغضب لذلك، فلست بمُلزَم أن تُبَيِّن له سبب المنع ولا مناقشته في ذلك، وقد يكون من الأنسب مناقشته فيه، لكن لا يُناقَش مباشرة، ومن باب الإيحاء إليه بفهم مشاعره، يحسن أنك بعد ذهاب فورة الغضب أن تبين له سبب الرفض، مع بيان الحب والاحترام له.

ورأيتُ طريقة يفعلها بعض التربويين تفيد مع بعض الأبناء إلى حدٍّ بعيد، يقول: كنتُ إذا منعت ابني من تصرفٍ ما، أو نصحته،

كنت أقول له: «بنيَّ، لا يزعجك نصحي، فإنني سأصحبك فترة معينة، أحاول فيها أن أعطيك ثمرة تجاربي ورؤيتي، ثم بعد ذلك سيكون لك عالمك الخاص، وأصحابٌ ومعارفُ، بل وأسرارٌ خاصة ربما لن تطلعني عليها، وربما لن تكتشف صواب وجهة نظري إلا بعد أن تكون في مثل سني»، فكنت إذا قلتُ له ذلك ارتاح لحديثي؛ لأنه رأى تفَهُّمي لمشاعره.

ففي هذا الحوار لم يتراجع الأب عن قراره الحازم بالمنع، ومع ذلك بَيَّن للابن مدى تفهمه لمشاعره، فأعطى واجبه التربوي حقه، وأعطى ابنه نصيبه من الحنان والاحترام الذي هو حقه.

ومن المُهِم التنبيه إلى أنك لو منعتَ الابن من شيء فلا تعده دائمًا ببديل؛ لأنك ربما لن تكون قادرًا عليه، فيرى الابن أنك أخلَفتَهُ الوَعدَ فِي أمر أصبح حقًّا من حقوقه منذ أن أطلقته له، ثُم لم تُعْطِه إياه.

ومع ذلك فقد تعمد أحيانًا إلى أن تعد الابن ببديل، من باب ترويض نفسيته لما تريد، لكن لابدَّ أن تأتيه به، وليس من

قَبيل أنني أكذب عليه ليترك ما منعته عنه، ثم سينسى ما وعدته به، **فهذا خطأ بالغ، ينزع الثقة، ويُظهِرُك في نظر هذا الابن كذابًا!**

ولذا ممَّا قرَّره أهل علم نفس الطفل أن علاقة الوالدين مع أبنائهم يجب أن تُبنى على الثقة، ومن أجل ذلك فيجب ألَّا تُعطَى الوعود ولا تُؤخَذ من الأطفال[1].

ومن أجل أن تكون الأوامر والنواهي حازمة: فلابد ألَّا يختلف الوالدان عليها بين «نعم» و«لا»، فيجب توحيد القرار، ويؤكَّد على الأم بالذات ألَّا تخالف ما قاله الوالد حتى لو أخطأ، لأن الغالب أن الأب يعمل من منطلق العقل، والأم من منطلق العاطفة، فقد يمنع الأب ابنه أو ابنته من شيء، فتأتي الأم فتأذن له، وقد تمنع الأم أبناءها من شيء -وهي على صواب-، فيأتي الوالد من باب العناد لها أو كسر شخصيتها فيأذن لهم فيه، يظن أنه بذلك قد نكَّل بزوجته، وهو قد أفسَدَ أبناءَهُ.

لابد أنْ يُعرَف أن الأبناء قليلو التصور والإدراك، ويحبون من يُرَخِّص لهم فيما يريدون، لكنهم قد يتعاملون مع ذلك

---

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٧٣).

بمكرٍ ودهاء، ويكون عندهم خط للموافقة يلجأون إليه كلما أرادوا، فتضطرب العملية التربوية، ويبدأ الأبناء بالترخص فيما كان في منعهم منه مصلحة.

لذلك يجب أن يتفق الآباء والأمهات على موقف واحد، ويُعلم أن القرار الآكد هو للأب؛ لأنه أقدر على القيادة، فلو جاء الابن ليستأذن الأم فالواجب أن تسأل: هل سألت أباك؟ هل أذن لك؟ حتى يعلم الابن أن الأبوين متفقان على رأي واحد.

ولو ثبت عند أحد الأبوين أن ابنه خَدَعَهُ في ادِّعاء أخذ الإذن من شريك حياته، فيجب أن يُعاقِبَ الابن حتى لا يعود لمثلها، وأقل عقاب: أن يُحِسَّ بفقد قدرٍ من الثقة، فكلما استأذن الوالد بأمر قال له: «أخبَرتَ والدِتَك؟»، والعكس بالعكس.

على أن هذا السؤال لابد أن يُعمل به لفترة معينة لا تطول، ويكون سؤالًا طبيعيًّا لا يكون بلهجة التعيير والتنقيص.

وهنا مسألة مهمة، وهي: أنه قد يَرَى أحدُ الآباء خطأ قرار الطرف الثاني، فلا يصحح من تلقاء نفسه، بل يبقى ظاهرًا أمام الأبناء بأنه على موقف شريكه، ولا مانع أن يناقشه خفية في

قراره، ويبيِّن له أن الصواب عكسه، فربما يُبَيِّن له الطرف الثاني صواب قراره، وربما يعترف له بخطئه، وهنا يحتاج إلى تراجع تكتيكي، يتفق الأب والأم على طريقة ليتراجع المخطئ عن قراره بهدوء، بدون أن يبيِّن أحدهما للأبناء أنه أخطأ في قراره أو استعجل، ليُحَافِظَا على ثبات قرارات المنزل، وأنه يسير على نظام؛ لأن بعض القرارات يكون في التراجع عنها مصلحة راجحة، لكن في الوقت ذاته لابد أن يكون التراجع تكتيكيًّا.

الهجوم اللفظي

تذكر دائمًا أنَّ الابن يحمل قلبًا، فهو يحس ويفرح ويتألم، وليس جمادًا مجردًا من الإحساس والشعور .

فإذا وضعت ذلك نُصْبَ عينيك، حملك ذلك على تجنُّب الوسائل الخاطئة التي يعتمدها بعض المربين مع أبنائهم، حيث يندفعون نحو الهجوم اللفظي بالسباب والشتائم القبيحة، أو بإطلاق الأوصاف البشعة، يظنون أنهم بذلك يحققون التربية، ويُقَوِّمون أخلاق الابن، وهم يساهمون في إفساده وتدميره عاطفيًّا.

من المُستحسن أن نضع أنفسنا في مكان أبنائنا، حتى نحس بشعورهم نحو هذه الكلمات اللاذعة، والهجوم الوحشي الذي يجعلهم مُحبَطِين.

الصفات المهينة مثل السهام المسمومة، يجب عدم استعمالها

ضد أولادنا، وعندما يقول شخص: هذا كرسي بشع، فلا شيء يحدث للكرسي، إنها لا تشعر بالإهانة ولا بالإحراج، إنها تبقى كما هي بِغَضِّ النظر عن الصفة التي أُلصِقَت بها، لكن عندما يوصف الأولاد بالبشعين أو بالغباء أو بالبَلادة، فإنَّ شيئًا يحدث لهم، هناك تفاعلات في أجسامهم وفي أنفسهم، ينمو السخط فيها، والغضب، والكره، فتبرز خيالات الانتقام، ويظهر على السطح السلوك غير المطلوب، وأعراض أخرى متعبة.

إن الهجُومَات اللفظية تنتج سلسلة من التفاعلات تجعل الأولاد وأهلهم في حالة مزرية، فعندما يوصف الولد بالبلادة، فمن الممكن أن يرد في البداية: لا، أنا لستُ بليدًا، ولكن في أكثر الأحيان يقوم بتصديق والديه، إنه يبدأ بالتفكير بنفسه على أنه شخص بليد، وعندما يحدث أن يتعثر أو أن يسقط، فمن الممكن أن يقول لنفسه بصوت عالٍ: إنك لبليد جدًّا، ومنذ ذلك الحين وصاعدًا، سيقوم بتجنب الظروف التي تحتاج إلى بَدَاهة؛ لأنه مقتنع بأنه بليد بما فيه الكفاية كي لا ينجح.

عندما يتم إخبار بنت -وباستمرار- من قِبَل والديها ومعلميها بأنها غبية، فإنها تميل إلى تصديق ذلك، وتبدأ التفكير عن

نفسها بهذه الطريقة، ثم تقوم بترك المجهودات الفكرية، وتعتقد أن تجنب الإهانة يكون بتجنب المسابقات والمنافسات، ويتمحور شعورها بالأمان حول عدم المحاولة، **ويصبح شِعَارُها بالحيَاة**: إن لم أجرب فإنني لن أفشل.

أليس من المدهش معرفة كم من التعليقات السلبية والمُهينة التي يطلقها الآباء بحضور أطفالهم، بدون إدراك نتائجها المؤذية والمهينة[1].

وهناك نوع آخر من الهجوم الذي ربما لا يحمل ألفاظًا شنيعة، لكنه يدور في فلك التخذيل وزرع الإحباط: فبعض المُرَبِّين دائم النقد لأبنائه على كل شيء، بسبب وبِلا سَببٍ، صغيرًا كان أو كبيرًا، حتى يفضي بهم ذلك إلى المَلَل والسآمة وكراهية لقاء الوالد أو الوالدة، حيث يكونون مصدر قلق بالنسبة إليهم، فمرة بالمقارنة بالناجحين واتهام الابن بالفشل، وتارة بالنقد والتقييد للحرية بلا سبب، «لماذا تضحك بهذه الطريقة، لماذا تمشي هكذا، لا تفعل كذا، لا تتحرك، لا، لا»، إلى غير هذه العبارات.

---

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٥٦).

يعتمد الأطفال الصغار بصورة خاصة على والديهم لإخبارهم من هم، وما الذي يستطيعون أن يكونوا، ويحتاج الأطفال لتطوير إحساس قَيِّم عن أنفسهم، إلى سماع الملاحظات الإيجابية على الأخص عن ذواتهم.

إنه لمن السخرية أن نرى العديد من الأهالي يجدون أنَّ تحديد الأخطاء في أولادهم هو أسهل من تحديد حسناتهم، ومع هذا، فإذا أردنا أن يكبر أولادنا وهم يشعرون بالثقة ومطمئنين ذاتيًّا، فإنَّ علينا اغتنام كل فرصة للتأكيد على التعليقات الإيجابية وتَجَنُّب التعليقات المهينة[1].

لا أحد يمنع المربي من النقد والتصحيح، ولكن من الخطأ أن يكون هذا سِمَةً وصِفَةً بارزةً له كلما جلس بين أولاده.

كثرة النقد للأبناء تؤدي إلى تشويش أفكارهم؛ حتى لا يعودوا يميزون الخطأ من الصواب، ويجعلهم في حَيِّز الانهزامية، **والخَطَر الأعظم**: انتقاد الابن رغم نجاحه، أو على الأقل انتظامه في سير حياته، فيكون الوالد مصدر انتقاد مزعج للابن،

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٥٦-٥٧).

فحتى في حال نجاحه وتمييزه ينتقده من باب أنه يريده أن يكون أفضل من ذلك.

تخيَّل ما الذي يستطيع أن يفعله هذا الابن وقد أغلقت عليه جميع الأبواب؟!

إن هذه الطريقة من التعامل غير المدروس، ستسلب من الابن الاطمئنان، وتُورِثُه اختلاطَ الأمور عليه، والإحباط، ونزع الأُلفَة بينه وبين والده أو والدته، فكلما حاول أن يبرز لم يزل عندهم في حيِّز النقص، فماذا يفعل، وكيف يصنع؟ وكفاه بذلك حيرة!

ولذلك نبَّه المختصون وحَذَّروا من خطر التوبيخ المُتَكَرِّر، وكأن المُرَبي قد تبرمج عليه حتى عاد يصدر منه بطريقة تلقائية بلا شعور ولا سبب، فقط لأنه يريد أن ينتقد.

ليس مطلوبًا من المربي أن يهمل تربية ابنه، ويصحح الأخطاء، ويدله على الصواب، لكن ليكن انتقادًا بسبب مؤثر وليس سطحيًّا، ولا يكثر منه حتى يسأمه ابنه، مع النظر بواقعية هل يتقبل الابن هذه الطريقة أم لا؟ وهل ستثمر أم لا؟

فالمراد هو تصحيح المسار، وتثبيت الأقدام على الطريق، وليس بكسر الشخصية، وقتل العزيمة، وزرع الانهزامية والإحباط، حتى إذا تقدم به العمر فإذا بالابن الذي كان يرسم له في مُخَيِّلَتِهِ حياة مميزة، وبروزًا في شخصه، لم يبق منه إلا شخص مهزوز الشخصية، قليل التجارب، غير قادر على إصدار قرار يكون فيه مصلحته ونجاحه.

الأولاد الذين يتعرضون للنقد بصورة مستمرة، يتعلمون إدانة أنفسهم والآخرين، إنهم يتعلمون أن يشكوا بقيمتهم الذاتية، وأن يستصغروا قيمة الآخرين، إنهم يتعلمون أن يشكوا بالناس وأن يتوقعوا مصيرهم الشخصي[1].

ويرجع كثير من تصرفات الوالدين بهذه الطريقة، إلى أنَّ معظمهم لا يشعرون بقدرة الكلمات على التحطيم، ثم إنهم يجدون أنفسهم يقولون نفس الأشياء التي سمعوها من آبائهم، أشياء لا يقصدونها بلهجة لا يحبونها، **الكارثةُ في مثل هذا التواصُل ليس بانعدام التفهم، وليس بانعدام الذكاء، بل**

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٥٤).

بانعدام المَعرِفَة، ولذا فيحتاج الآباء إلى طريقة خاصة للترابط والتحادث مع أبنائهم.

كيف سيشعر أي واحد منا إذا حضر أحدُ الجراحين إلى غرفة العمليات، وقبل أن يتم تخديره من قبل أخصائي البنج بادره الجراح بالقول: إنني في الحقيقة لا أملك تدريبًا كافيًا بالجراحة، لكنني أحب مَرضَاي، وسأقوم باستعمال الفطرة!

من المُمكِن أن نشعر بالرعب ونهرب طلبًا للنجاة، لكن الأمر ليس بمثل هذه السهولة بالنسبة للأولاد الذين يعتقد آباؤهم بأنه يكفي أن تقدم لهم المَحبَّة والحكمة.

ومثل الجراحين، فالأهل أيضًا يحتاجون لتعلم مهارات خاصة ليصبحوا مؤهلين للتعاطي مع المتطلبات اليومية للأولاد، ومثل الجَرَّاح المدرب الحريص عند إجرائه جراحة ما، فالآباء أيضًا يحتاجون للمهارة باستعمال الكلمات؛ لأنَّ الكلمات مثل المَشَارط، يُمكِنُها أن تجرح، إن لم يكن ماديًّا؛ فبإمكانها التسبب بجروح عاطفية مُؤلِمَة.

إن كنا نَرغَبُ بتحسين التواصل مع الأولاد، فيجب أن

نبدأ بفحص كيفية استجابتنا، ولنعرف ماهية الكلمات يجب أن نقيسها على الكلمات التي نسمع أهالينا وهم يستعملونها مع الضيوف والغرباء، إنها لغة تحافظ على المشاعر ولا تنتقد التصرفات[1].

يجب على الوالد أن يحمي أبناءه من التعليقات الهجومية؛ خُصوصًا في حال الغضب، فالبعض عندما يفقد السيطرة على نفسه، يتصرف كما لو أنه فقد رُشدَهُ، فيقول ويفعل أشياء لأولاده قد يتردد في توجيهها إلى أعدائه، فإنه يصرخ، ويُهينُ، ويهاجم، وعندما ينتهي الضجيج يشعر بالذنب، ويقرر بهدوء ألَّا يتكرر ذلك، لكن وبشكل لا يمكن تجنبه يجد الغضب يضرب مجددًا، ويُبطل النية الحَسَنَة، ومرة أخرى فإنه يوجه سياط غضبه إلى الذين نذر حياته وثروته من أجل مَصلحَتِهِم[2].

وكمَا يجبُ على الوالد حمايةُ أبنائه من ألفاظه وتصرفاته الهُجومية، يجب عليه حمايتهم من هجوم الغير وتعليقاتهم،

---

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص١١-١٢).

(٢) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٥٩).

سواء التعليقات الجادة أو التي تلبسُ ثوب المزاح؛ لكنها تحمل في طيَّاتها كسر شخصية الابن أو نفسيَّته، على أننا لا نبالغ في هذا الباب ونكون حسَّاسين، فإن بعض التعليقات من بعض الأشخاص مقبولة، ولذلك يتقبلها الابن برَحَابَة صدر، وتُرَافقها ابتساماتٌ عريضة، ورَدَّةُ فعل طبيعية، لكن هناك بعض الأشخاص إما أنه فعلًا يريد بتعليقاته زعزعة هذا الابن، أو أنه لا يُمَيِّزُ ما يتفوه به، وفي المقابل يجد الابن ما يمنعه من الردِّ عليه، فيؤدي ذلك إلى انكساره، وفُقدان الثقة بنَفسِهِ، وكلما كان الهجوم أبلغ؛ كانت الآثار المترتبة عليه أكثر خطورة، هنا يأتي دور الوالد -أمَّا كانت أو أبًا- ليقوم بدَورِهِ في حماية ابنه، فيُبيِّن بصورة لا عدائية لِمُهاجم ابنه أنه لا يرضى أن يُعامَلَ ابنُه بهذا الأسلوب، وهذا الطَّرح العنيف.

اشتكت إليَّ ذات مرة إحدى الأمهات بأنها كلما ذهبت إلى أهلها في الاجتماع الأسبوعي للأسرة، يقوم إخوانها وهم من سِنِّ ابنها -ابن الاثني عشر عامًا- بالتعليق عليه طوال الجلسة، ونَعته بالصفات: «غبي .. لا تفهم .. ونحو ذلك»، حتى بدأ يكره الذهاب إليهم، وبدأ ينطوي على نفسه!

فقلتُ لها: يجب عليك أن تَقُومي بدورك كأم، أرى ألَّا تذهبي إلى اجتماع الأسرة هذا الأسبوع، فإذا كَلَّمَكِ إخوانُك عن ذلك، فقولي لهم ما في نَفسك من ناحية عدم الرضا عن أسلوبهم مع ابنك، وفعلًا حَصَلَ الأمر المتوقع، فكلمها إخوانها عن سبب عدم حضورها، فقالت: إنكم تُهَاجمون ابني كثيرًا وكأن المواضيع انتهت حتى لم يبقَ تسلية لكم إلا بالتعليق على ابني ونعته بالألفاظ القبيحة، فتعَهَّدُوا ألَّا يعودوا لذلك.

تقول: فعلًا بعد مُرورِ أول جلسة بعد هذا الحوار ثم الثانية، بدأ ابني يعودُ إلى شخصيته، وتعودُ إليه ثقته بنفسه، وبدأ ينطلق في حديثه وطَرْحِهِ.

كثرةُ الهجوم بالألفاظ القبيحة والنعوت السيئة الجارحة تخرج لنا ابنًا غير مُطمئن نفسيًّا، فاقدًا للثقة في نفسه، سواء كانت هذه الألفاظ من الوالِدَيْن أو غيرهما، أو كانت من الأجنبي مهما كان قُرْبُه من الأسرة؛ لأن هذه الألفاظ ستتحول مع مرور الوقت إلى حقائق مُسَلَّمة عند هذا الابن؛ حتى يصبح مهزوزًا!

فتخَيَّل حينما يوصف الابن بأنه غبي، وأنه لا يفهم، أو يوصف بأوصاف الحيوانات، كيف تريد أن تكون حاله؟

مما يَصِل إليه هذا الابن مع الأيام أنه لن يستطيع أن يتخذ قرارًا ولا يُبدي رأيًا، ولا يستطيع أن يجيب على سؤال، قائلًا في نفسه: أخشى أن أقول ولا أصيب الرأي المناسب، فتثبت عندهم الفكرة أنني غبي، وأنني لا أفهم، فيزداد جُبْنًا من إبداء رأيه حتى يصبحَ ضعيفَ الرأي، مهزوزَ الشخصية.

نحن وإن كنا نمنع من المدح المبالغ فيه للأبناء؛ لأنَّ ذلك سيُكَلفهم فوق طاقتهم النفسية، ففي المقابل لابدَّ من حماية الأبناء من الهجوم الذي من شأنه أن يخرج لنا شخصًا -على الأقل- لا نأنس به.

يجب أن نستفيد من تجاربنا العاطفية، إننا نعرف ما يمكن لأولادنا أن يشعروا به حين يتعرضون للتخجيل علنًا وبحضور نُظَرَائِهم، ويمكن لنا اختيار الكلمات بطريقة تُعَرِّفهم بأننا قد فهمنا ما مَرُّوا به[1].

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٢٥).

المبالغة في المدح

كما نتحدث عن سلبية الهُجوم غير المُبَرر على الأبناء؛ مما يؤدي بهم إلى الضعف والانهزامية، لابدَّ أن نتكلم بالمقابل عن مدح الابن المُبَالَغ فيه، وذلك أن المدح المبالغ فيه سيجعل الابن يحاول دائمًا الوصول إلى تلك المنزلة التي أوصله إليها الوالدان، فإذا وجَدَ نفسَه لم يقارب هذه المنزلة، أو كان بعيدًا عنها؛ فإذ به يشعر بالخيبة!

ولذلك نَبَّه علماء التربية وأكَّدوا على أن الذي ينبغي فعلُهُ حين قيام الابن بعمل جَيد: أن يُمدَح الوصف والمجهود الذي بُذل لا الشَّخص، فيمدح العمل دون التعرض للشخصية؛ فيقال: «عمل جيد، ما أجمل هذا الفعل، أنا مسرور بأن أرى هذا العمل»، وبالتالي: سيتضح للابن أنه مُمَيَّز، وأنه فعل فعلًا يستحق الثناء، وذلك أن هذه الحياة فيها من المنغصات

الشيء الكثير، ولابدَّ أن يطرأ على الكبار والصغار أمورٌ من المحبطات، فمن الصعب أن تصفه بوصف يظن من خلاله أنه يستطيع فعل كل شيء لأنه عظيم، قوي...إلى آخر هذه الأوصاف، بينما الثناء على العمل الذي استنتج الابن من خلاله أنه ناجح، لو مَرَّ به عمل لم يوفَّق به، لم يهاجم نفسه، بل يعرف -وببَسَاطة- أنه لا يستطيع عمل كل شيء، فالناس طاقات، وكونه لم يستطع عمل أيِّ شيءٍ لا يعني الفشل؛ لأننا وَجَّهنا تفكيره للعمل لا للشخص، فالشخص قد يكون مُمَيزًا ولا يُوفَّق لفعل أمرٍ سهل، وفي المقابل يبذل أقل الأسباب ثم يفتح الله عليه بأمر عظيم.

وهذا لا يعني أننا لا نمدَحُ أبناءنا بما ظهر منهم من أعمال البر والخير والصلاح، لكن يُقرن هذا المدح بالعَمل الذي كان سببًا لهذا الثناء.

وقد جاء في السُّنة النبوية ما يُبيِّن هذا الاستنتاج الذي توصَّل إليه التربويون في هذه الأزمان، فنحمد الله على هذه السنة المباركة؛ فقد مدح النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عبدَ الله بنَ عمرو بن

العاص فقال: «**نِعْمَ الرجلُ عبد الله لو كان يقُومُ الليلَ**»[1].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الأشعريين إذا أَرمَلُوا في الغزو، أو قَلَّ طعام عيَالِهم بالمدينة، جمَعُوا ما كان عندَهُم في ثوب واحد، ثم اقتَسَمُوه بَينَهُم في إناء واحدٍ بالسَّويَّة، فَهُم مِنِّي وأنَا مِنهُم**»[2].

فالمدحُ يُعين على الثبات على المبادئ الطيبة، والأعمال الحسنة، واكتساب المعالي، لكن لابد أن يُقرَن بما كان سببًا له؛ سواء قيل ذلك لفظًا، أو لأنه اشتهر أن فلانًا ممَّن يعمل الخير والصلاح.

وقد يُقال: إنَّ عيشَ الوالد مع أبنائه والنظر فيما يقومون به من الفضائل أنه من باب الواجب والطبيعي، فلا يثني خيرًا ولا يمدح على معروف، هذا مما يجعل الحياة جافة، كأنها وظيفة يقوم من خلالها الأفراد بما أوكل إليهم من الأعمال، بل وحتى الوظائف تحتاج من المسؤول أن يُثَمِّن جهود العاملين

---

(١) رواه البخاري (١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩).

(٢) رواه البخاري (٢٤٨٦)، ومسلم (٢٥٠٠).

بكلمات الثناء والاعتراف بثمرات أعمالهم والشكر على ذلك، فكيف بالأبناء الذين هم أقرب نفسيًّا ووجودًا؟

من الخَطأ أن ننظر إلى أعمال الآخرين أنها من باب الطبيعي والواجب، ولابدَّ من تثمين ذلك بكلمات ربما لا تزيد مالًا أو جاهًا، لكن تخفف عناء العمل المَبذُول، وأنه ثَمَّةَ مَن يُقَدر لك ذلك، وإذا كان الكبار يستشعرون هذه المسألة رغم تَقَدُّمهم بالسِّن، ومعَافَسَة الحياة بأشخاصها على اختلاف عقُولِهِم وإدراكهم، فهذا الابن أيضًا يحتاج إلى هذه التغذية حتى يخرج شخصًا مُطمَئنًّا مُشبعًا عاطفيًّا، تكون هذه الوسائل من أسباب نجاح شخصيته.

نُخطئ كثيرًا حينما نظن أن هذه العبارات العاطفية والغزل المبذول للأبناء يُؤدي إلى ضعف شخصياتهم حتى يكونوا أشخاصًا «مَهزُوزين، ناعمين إلى حدِّ عَدَم التماسك»، فما نطالب به ليس نمطًا واحدًا، ولا اقتصارًا على بذل المدح والثناء دائمًا، بل ما يطالب به التربوي أن تكون الشخصية مُتكاملة يُتعامل معها من خلال وضع كل شيءٍ في موضعه

الصحيح، كما تجده منثورًا في ثنايا هذا الكتاب، **والسرُّ فِي ذلك ومدار الأمر حول ما أسَّسناه فِي بداية هذا الكتاب فِي بيان معنى المشاعر، وأنَّ المقصود منها: معرفَةُ التعامل مع الانفعالات،** فمدح في مكان، وحزم في مكان آخر، وتأديب في حال أخرى، وهكذا.

الإسراف في الدلال

مِن أكبر الآفاتِ التربوية: إسرافُ الوالدين في دلال الأبناء ماديًّا ومعنويًّا، حتى يرى الابن في نفسه أنه قد تولَّى زمام الأمور، فلا يطلب شيئًا إلا وجده أمامه، حتى ولو كان فوق طاقة الوالدين؛ لأنه وبسبب صنيع الوالدين لم يعد قادرًا على تمييز ما يستطيعون توفيره مما لا يستطيعون، **ولعلَّ مِن أبرز أسبابِ هذا الإسراف: الخَطأ في معرفة مَفهُوم الحب.**

حبُّ الأبناء شَيءٌ جميل، لكن هذا لا يعني أن يلغوا وجود مَن سواهم، **ثُم إن الحُبَّ بهذه الصورة يؤدي إلى تدميرهم شخصيًّا**، فبسبب الإسراف في الدَّلال الناتج عن خطأ معرفة مفهوم المحبة، ستنشأ فيهم الأنانية التي تثمر الغضب والضجيج والصراخ والبكاء إذا لم تُلَبَّ لهم طلباتُهُم، ثم لا يزال هذا الشعور يتنامى في داخلهم حتى إذا كبروا وواجهوا مجتمعًا

لا يلبي لهم مطالبهم، عادوا إلى الضيق والاضطراب، واهتزاز الشخصية.

أنا أؤيد أن المُرَبِّي الصالح لا يمنع أولاده من شيء هو قادر على تحقيقه وإيجاده، حتى لا يكون الابن أقل من أبناء مجتمعه، لكن لابدَّ أن يكون هذا العطاء خاضعًا لأعراف العقلاء من أهل المجتمع، فليس كل ما يريده الابن يُحقَّق، ولو كان خلاف المألوف.

ثم إننا نُعِدُّ هذا الابنَ لمواجهة مجتمع مختلف التوجهات والرؤى والأفكار والنفسيات، فكيف نستطيع أن نجعله قادرًا على خوض هذه التَّجَارب التي تحتاج إلى صَلابَة، بشخصية لم تعتد أن تسمع عبارة: «لا»؟

مِن أكبَر الآفات التي تجعَلُ المَرءَ لا يستطيعُ أن يتأقلَمَ مع مجتمع لا يُحَقِّق له كل ما يريد: الشعور بأن تحقيق أي مطلبٍ له هو حق من حقوقه، والذي تسبب له بهذا الشعور المُدَمِّر «**الأنانيةُ**» الناتجةُ عن الإسراف في الدَّلال الذي أَوْجَد شخصًا حسَّاسًا، سريع الانهيار، ضعيف التماسك عند أول تجربة عملية واقعية خارج نطاق المنزل، ولذلك يَحسُن منع الأبناء

أحيانًا من بعض ما يُريدون من باب المصلحة، حتى ينشأوا على مجتمع واقعي لا محْضَ خيال، ويجب حين اتخاذ قرار المنع أن يكون المنع مترجحًا مدروسًا، وليس من باب إخضاع الابن للتجربة، فإذا أصدرت قرار المنع، فأغلق سمعك عن التعليقات التي تتهمك بالحرص المادي، أو التضييق الاجتماعي، أو محاربة سعادة الأبناء، أو كل الناس يفعلون كذا، ويكفي لرَدِّ هذه الاتهامات والاقتراحات غير السَّديدة، معرفتك بمقدار ما كنت تقدمه لابنك من البَذْل والعَطاء، ويقينك أنك تفعل ذلك لتحقيق مصلحة الابن ليكون سَدًّا مَنِيعًا لا جدَارًا مُتهَالِكًا.

والمُطالبة بأن يكون المنع مَدرُوسًا، هذا من أجل ألَّا تتولد عنه رُدود فعلٍ مضَادة، فقد أفاد بعض المختصين في علم نفس الطفل أنَّ من الأخطاء الشائعة حول تفسير الأسس التي تنشأ عليها الأنانية، **هي وجهَة النَّظر التي تَقُول**: إن الأنانية هي التي تتولد فقط عندما تكون رغبات الطفل لا مَحدُودة، وعندما يأخذ الأهل جميعًا دون تمييز بتدليل الطفل وزيادة مُلاطَفته، فتنشأ لديه صفة الأنانية، والاتكالية، وعدم الاكتراث

بالآخرين، وهذا تفسير شائع لأسباب الأنانية على نطاق واسع، لكنه اتضح أنَّ الأنانية لا تتولَّد عن الحنان والاهتمام الزَّائد فحَسب، **بل أكثر ما تَنشَأ بسبب النَّقص الشديد في إظهَار هذه المَشَاعر تجاه الطفل**، ومهما يكن هذا الأمر غريبًا، فالحقيقة هي هكذا، وليس من الصَّعب أبدًا فَهْم آلية هذه الظاهرة[1].

وهذا مما يَقُود إلى وجوب التصرف باعتدال نحو الطفل من حيث العطاء أو المَنع، فيكون كل منهما مدروسًا يُنْحَى فيه إلى الوسط.

(١) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص٦١).

لا تقطع وعدًا ولا تعطيه

غالب الأبناء -وخصوصًا الأطفال- لا يميزون بين ما يستطيع أن يُحَقِّقه لهم الوالد من الطلبات، وبين ما لا يستطيعه، ولذلك تجدهم كلما وقعت أعيُنُهُم على شيء من الألعاب مثلًا، أو رأوه في أيدي غيرهم من أقرانهم طلبوه من والديهم.

فينبغي في مثل هذه القضية أن يكون الوالدَانِ واضِحَين مع أبنائهما، ولا يَعِدُوهُم بما لا يستطيعان توفيره لهم، **فأكبر الأخطاء: ما يفعله الوالد أو الوالدة حينما يكثر صُرَاخ الابن في السوق، أو إلحاحه عليهم في البيت ليأتوه بما رآه عند فلان أن يقولوا له**: «سَنأتيك به فيما بَعد، فقُم بما طلبناه منك»، أو: «إذا أتممت العمل الفلاني جئناك بما تطلبه»، وهما يعرفان أنهما لن يُوَفِّرا له ذلك، إما بسبب عدم القدرة المالية، أو للنظر في المصلحة التربوية، **فالواجبُ أن يكون الوالدُ صَريحًا مع**

ابنه أنه لن يَأتِيَهُ بمَا طَلبه.

وعادة ما يقارن الابن أو الابنة نفسه بأبناء فلان أو فلان، فلابد أن يكون ردُّ الوالد بأنه لن يأتيه بهذا الشيء، وأن يكون صريحًا معه إذا كان غير مستطيع ماديًّا، أن يقول: «فلان يستطيع أن يأتي به، وأنا ليس عندي القدرة المادية».

أو إذا كان للمصلحة أن يقول: «كل شخص يُرَبِّي أولاده بالطريقة التي تناسبه»، دون أن يتعرض لفلان بالنقد اللاذع.

ففي هذه الطريقة الواقعية نجعل الأبناء يعيشون على حسب قدرتنا المادية، أو طريقتنا التربوية، ولا نذهب لإعطاء الوعود التي إذا لم تُنَفَّذ رآها الابن نوعًا من الكذب، فيجب التعامل مع هذا الأمر من باب أننا نُؤَسِّسُ بناء تربويًّا نريده أن يستمر مُوافِقًا للواقع، وليس علاجًا وقتيًّا بإطلاق المواعيد التي لن تَدخُلَ حَيِّز التنفيذ.

حديث الطفل

يُفيد علماء التربية: أن الطفلَ الذي يُعطَى فرصةً للكلام يكون أكثر ثقةً في نَفسِهِ، وذلك بسبب تَحَرره من القيود المفروضة بلا معنى.

أحاديث الأبناء مهما كنت تراها مُزعِجَة، لا تخلو من إضفاء جو جميل على حياة الآباء، ومُتعَة للمستمعين إلى حد بعيد، ولذلك ينبغي أن يترك لهم مجالٌ رحبٌ لينطلقوا في عباراتهم، ولكن لابُدَّ أن يمارس المربي دَورَهُ في التوجيه بطريقة ذكية، حتى لا يكون الابن مِهذَارًا إلى درجة المَلَل.

دَعْهُ يتكلم؛ لينطلقَ لسانُه، ويُرَكب العبارات الجميلة التي لم تكن تتصور أنها تصدر ممن يكون في مثل عمره، ولذلك فإن التعامل مع الابن -لاسيما في مراحله الأولى- بطريقة الإسكات، هذه طريقة خاطئة، فحديثه معك يزيل الرَّهْبَة

والخوف، ويعطيه ثقة في نفسه أثناء حديثه مع الآخرين؛ لأنه سيتذكر أن أباه كان يستمع منه دون كَبْتٍ ولا تَخذِيل.

إسكات الأطفال الدائم بحجة الإزعاج هذا خطأ، فكيف يتعلمون إذا لم يَقُم الوالدُ بهذه المُبَادرة، دعهم يتحدثون، وأصْغِ إليهم، ووجِّههم؛ حتى لا يَكُونوا بعد ذلك ثقيلي الحضور.

إن إرادة الطفل أن يكون مُنفَتحًا مع والديه تبدأ من عند هذه النقطة، وهي أن يُعطوا فرصة للتعبير وإبداء ما يشعرون به، وليصلوا إلى هذه المرحلة لابد أن يرَوا اهتمام الوالد والوالدة بكلامهم، والإصغاء إلى ما يبوحون به باهتمام بالغ، وأن يبتعد الوالدان عن المُلهِيَات حين قدوم الابن للحديث معهما، فلا يحدثك ابنك بمسألة يرى أنها عظيمة وأنت تلهو بهاتف أو أوراق أو غير ذلك، وتعطيه جانبًا من رأسك وتقول: إنني أسمعك، **فحُسْن الإنصات فَنٌّ عظيم، وله دور كبير في تآلُف النفوس، فحين تقوم به على الوجه الأكمَل ترى من خلاله مدَى انفتاح الابن عليك حتى يُفضِي لك بكُل ما يشعُرُ به.**

فالمُحَادثة مع الأولاد فنٌّ فريد من نوعه لديه قواعد ومعَانٍ خاصة به، عادةً ما تكون مقاصدُ الأولاد متوارية وراء رموز ينبغي حَلُّها[1].

استمع طويلًا وقد جاءك الابن ليستشيرك أو يبوح إليك بأمر، لا يَكُن همك فقط كيف تُوجِّه، أو تكثر الأسئلة، أو تُعَاتب أو تُؤنِّب على الخطأ، **ففي وقتِ المشَاعر القوية؛ ليس هناك شيءٌ مُريح ومسَاعِد كمِثل شخصٍ يُصغِي ويتفَهَّم**، وما ينطبق على الكبار ينطبق أيضًا على الأولاد، يَحُل التواصل المتعاطف مكان الانتقاد وإلقاء المحاضرات والنُّصح، كل ذلك بفَضل البَلسَم الشافي للتفَهُّم الإنساني[2].

وليكن من الضروري معرفته أن بعض الناس يأتي إليك ليس لأنه يريد حَلًّا أو توجيهًا، بقدر ما يحتاج إلى شخص يسمعه، ويغوص في مشاعره، وإذا كنا نرى ذلك جليًّا حين مُعَاشَرَتِنَا مع الآخرين، فَبُروز ذلك في علاقتنا مع الأبناء أكثر وضوحًا.

---

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص١٥).

(٢) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٤٠).

جميل جدًّا، بل ونعمة عظيمة، أن يكون الأب قريبًا من أبنائه، فيُدْلُون إليه بأخبارهم، ويبثُّون إليه هُمومَهُم، خُصوصًا في هذا الوقت الذي وُجِدَت فيه الحواجز العظيمة بين الآباء والأبناء سواء كانت حواجز حقيقية أو مُتوهَّمَة.

جَرِّب في نفسك وتأمل من حولك، ترى أنه كلما كان الإنسان أكثر استماعًا للآخرين، كان الناس أسرع تَهافُتًا إليه؛ لأننا في زمن كثر فيه المُتكلمون، والذين يَقطعُون الحَديث قبل تمامِهِ ليُوجهوا ويُعلِّموا، ويغفلون عن الحقيقة في أنَّ حاجة بعض الناس إلى الإنصَات إليهم أكثر من حَاجتهم إلى التوجيه.

دَعْ ابنك ينطلق نحوك بكُل مشاعره وجميع عباراته، وسبيلُ ذلك: أن تبتعد عن دَورِ المحقِّق المتسائل عن كل شيء، أو المُهَاجِم الذي لا يتبينُ الأمور، هو قد جاءك يريدُ الاحتواءَ؛ فلا تَصُدَّه عنك، ولا تُنَفِّرهُ منك.

قد يأتي الطفل شاكيًا من معلم في المدرسة، أو زميل في الفصل، ليَكُن استمَاعُك إليه أكثر من أن تقوم بدور المحقق الظالم «لو لم تُخطِئ لم يُعاقِبك، لعلك كنت البَادِئ بالخصُومة»... إلى

آخر هذه العبارات، هل تتصور بعد ذلك أن يلجأ إليك في مُشكلة ؟!

وعندما تقول لنا طفلة: لقد صَرَخَتِ المعلمة في وجهي، ليس علينا عند ذلك أن نستعلم عن تفاصيل إضافية، كما أننا لسنا بحاجة للقول: ماذا فعَلت لتستَحِقِّي هذا؟

بما أنَّ المعلمة صرَخَت في وجهك فلابدَّ أنك قد فعلت شيئًا، ماذا فعلتِ؟ فقط علينا أن نتفهم ألَمَها وخَجَلها ومشاعرَهَا الغاضبَة، ونعلم أنه عندما يكون الأولاد في وسط عواطف قوية، لا يعودُ بمَقدُورهم الإصغاءَ لأحَدٍ[1].

يقولُ أهل التربية: إن حاجةَ الأبناء -خصوصًا الأطفال- في مِثل هذا المَقَام للاستماع وهَزِّ الرأس، أكثَر من حاجتهم إلى التعليقات التي تجعلهم في دائرة التهمة.

ذَكَرَتْ أمٌّ أنها في أثناء سيرها في المنزل، رأت ابنتها -وعمرها عشر سنوات- تجلس على المقعد وعيناها مغرورقتان بالدموع، جلست الأم بجانبها ووضعت ذراعها حولها وهي تتمتم: «حدث

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٢٣-٢٤).

أمرٌ ما»، وبَقِيت صامتة خمس دقائق، وأخيرًا تنهدت البنت وقالت: «شُكرًا أمي، أنا الآن بحالٍ أفضَل»، ولم تعرف الأم أبدًا ما الذي حدث، كل ما تعرف أنَّ وجودها المريح ساعد ابنتها؛ لأنها بعد ساعةٍ سمِعَت ابنتها تمرَحُ في غُرفتها.

أحيانًا كل ما يحتاجه الابن من أمِّه أو أبيه: هَمْهَمة تدل على فهم الموضوع، أو هزة رأس تُعبِّر عن التعاطف والمشاركة لضيقه جرَّاء تصرف حدث له، لا أن يحتاج إلى عِبءٍ إضافي ليُكَافح انفعالَهُ القَويَّ[1].

وعلى كُلِّ حَال، يجب الحذر في التعامل مع الأبناء من تعاطي عبارات: «اسكت، لا تتكلم، يكفي» بصفة دائمًا، فإن هذا يُؤدِّي إلى كَبْتِ مشاعره التي تحتاج إلى تفريغ.

كيفَ لنا أن نَعرفَ بمَاذا يُفَكِّر أولادُنا ونحن نمنعهم من الإدلاء بما يَحدُث معهم؟

إنَّ التعبير بالكلمات المتداولة المُعتادَة، مثل: «اهدأ»، أو: «كُف عن هذا التصرف»، مما يزيد الأولاد هياجًا، ولو استُبْدِلت

(١) انظر: «كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك» (ص٥٩-٦٠).

بكلمات الاعتراف والقبول للمشاعر، فإنها ستُهدِّئ أكثر المَشَاعر توحُّشًا، وتغير المزاج بشكل درامي[1].

يجب أن ننظُرَ ونُصغِي إليهم، ويجب أن نستفيد من تجاربنا العاطفية، إننا نعرف ما يمكن لأولادنا أن يشعروا به حين يتعرضون للتخجيل علنًا وبحضور نُظَرائهم، ويمكن لنا اختيار كلماتنا بطريقة تعرِّفهم بأننا قد فهمنا ما مَرُّوا به[2].

ثم لماذا يجب أن نتعامل مع هذا الابن بأنَّه ليس له حقٌّ في الحديث؟ وكأنه ليس في دائرة البشر، أو خالٍ من المشاعر، ونظن بعد ذلك أنه لن يتأثر من وقع هذه الكلمات الثقيلة على النفوس.

إذا لم يكن موقفنا مُشفقًا حنونًا، فإنَّ كُلَّ ما نتفَوَّه به يعتبره الولد زيفًا، أو تلاعُبًا ومُنَاوَرَة[3].

مع الأسف، إنَّ كثيرًا من الآباء والأبناء لم ينشأوا على

---

(١) انظر: «كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك» (ص٦٤).

(٢) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٢٥).

(٣) انظر: «كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك» (ص٣٧).

تشارُكِ المشاعر، ولذلك لا يعرفون بماذا يشعر الطرف الآخر أو كيف يشعر.

لتكُن القاعدةُ في تعامُلك مع ابنك: «دَعْهُ يتحدث، ولكن وَجِّهه للصواب»، فإذا كان في مجلسِ كبارٍ عَلِّمْه أدب الإنصات، وألَّا يتفرد بالحديث دون الآخرين، عَلِّمه أن كثرة الصمت أفضلُ من الكلام إلا بخير، أو بأمرٍ لابدَّ منه، وكن أنت له قدوة في ذلك، **فالأبناءُ يستفيدونَ من أفعالِ الآباءِ أكثر من أقوالِهِم**.

ومن أجل ذلك قد اهتم السلف بالقُدوة وحُسن الأسوة، فقد رأى مالك بن دينار رجلًا يسيء صلاتَهُ، فقال: «ما أرحمَنِي بعياله»، فقيل له: يا أبا يحيى؛ يسيء هذا صلاته وترحم عياله؟ قال: «**إنه كبيرُهم ومنه يتعَلَّمون**»[1].

حين تفرح بجميل مَنطِق بعض الأبناء وحُسن تركيبهم للعبارات والجُمَل، ثِق أن خلف ذلك مُربيًا أعطاهم الفرصةَ ليتحَدَّثوا، فكن أنت مثله.

وحين ترى ابنًا شجاعًا في طَرْحِهِ وبيانه، فلابد أن خلفه

---

(١) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٢/ ٣٨٣).

من بَلَغَ به إلى هذا المقام، وما وصل إليه إلا بتأسيس قاعدة: «**اترُك له مَجالًا رَحْبًا ليتحَدَّث، ولا تَغفل عن التَّوجيه**».

وهناك جانب لابدَّ من التنبيه عليه، وهو: أن الطفل ربما لا ينطلق إليك بالحديث، إما طبعًا وإما بسبب معاشرة الأجهزة الحديثة، فينبغي أن يكون لك دور في تدريبه على ذلك بدون إثقال ولا تكَلُّف، أو إلجاؤه إلى ما لا يحبه، دَرِّبه بعبارات موجزة، ومواضيع يحبها، وكلمات يأنس إليها، فكلنا نريد أن نستأنس بحلو حديث أبنائنا، ونظرة الثقة في أعينهم وهم يتحدثون، وشجاعة الرأي فيما يتكلمون به، ونحن نملك أن نضعهم على بداية الطريق من خلال زرع الثقة في أنفُسِهِم، **وسبيل ذلك**: أن تترك لهم سعة ومجالًا رحبًا في الحديث، وتجَنُّب كثير من الملاحظات التي لا يترتب عليها أثر، وليس لها قيمة، **فمن الجميل أن نعرف**: أنه ليس من الضروري أن ننتقد كل عبارة، وإن كانت ليست كما نريد، ولكن من أجل الحصول على النتيجة التي نأملها لابد من عدم التدقيق على بعض الأنماط التي لا نرغب بها، **يعني باختصار**: حتى حين نوجِّه نعرف أنه لابدَّ من

التجاوز عن بعض الهفوات؛ طمعًا في الحصول على الأكمل.

وعلى كُلِّ حال: فالحياة تُعَلِّم، والمخَالطة تُدرِّس، ولابدَّ من الأخطاء، بل وقد لا يحصل المرء على حلاوة النجاح، إلا بعد أن يذوق مرارة الخطأ.

الحديث مع الآخرين

أعط ابنَكَ الفُرصَة أن يتحدَّث إلى الآخرين ويتحاور معهم، فإن هذا مما يُعَزِّزُ الثقة، لكن وأثناء مصاحبتك له، ينبغي لك أن تنبهه على ألَّا يقاطع الآخرين وهم يتحدثون، بل يكون صَمتُه أكثر من كلامه؛ لأن الاستماع إلى الآخرين مما يدربه على كيفية الحوار، وأنت بدورك حين ترى ملاحظة على حديث أحد أن تنبه الابن بعد ذلك على سلبيات الحديث، ولا يلزم الإشارة إلى الشخص الذي لم يعجبك حديثه، بقدر ما تنبه ابنك على الأخطاء حتى يتجاوزها.

كم هو من الضروري تعليمه ألَّا يدخل في حديث أحد لم يأذن له في أن يُشَارِكَه الحديث، فإن وجه إليه أحد الحديث، أو شاركه في حديثه، فينبغي أن ينتبه الابن إلى ضرورة النظر إلى عين من يحدثه، فإن هذا مما يُعَزِّز ثقته بنفسه، ويعرف من

خلاله مدى تقبل الآخرين لحديثه، **ومع تكرار هذه المشاركات سيستفيد الابن الخبرة في إدارة الحوار، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب وطريقة إلى طريقة، على حسب ما يُوافق شعور المتلقي وقبوله.**

ولا أعني بذلك: أن يتكلَّفَ الابنُ الأحاديثَ التي لا تناسب مُيولَهُ، أو تقوم على المُجَامَلات أو الكذب، **لَكِن أعني بذلك**: اختيار الأسلوب الذي يناسب المقام.

لكن من المهم أن يُغرس في الابن ألَّا يُحَدِّث أحدًا وهو مُطَأطئ الرأس، أو ينظر إلى جهة أخرى، بل يتحدث وهو على ثقة فيما يطرحه ويشارك به الآخرين.

الطفل الغضبان

إذا علم الوالدانِ أن الطفلَ كُتلة من المَشَاعر والأحاسيس، تقَرَّر لديهم على إثر ذلك أنه ربما تجتاحه موجات من الغضب، ومن أجل أن يتجاوزوا مثل هذه الحالة المضطربة كان لابد من التعامل معها بتعاطف شديد، فرَدَّة الفعل المتعاطفة التي تنبئ عن تعاطف الوالدين وتفهمهم هي عنصر فَعَّال في تغيير أمزِجَةِ أولادهم الغاضبة.

يحتاج الابن في مثل هذه الحال إلى المشاركة معه في مشاعره، وإن كان الأمر من وجهة نظرك لا يستدعي كل هذا القدر من الغضب، ولكن على أرض الواقع قد وقع الأمر، فكيف نتعامل معه؟

يُشير علماءُ نفسِ الطفل إلى أنه وأثناء غضب الأطفال لا يمكن التواصل معهم بواسطة المَنطِق، وأنهم عندما يكونون

غاضبين فإنهم يستجيبون فقط للبَلْسَم العاطفي.

ولذلك ليس من المستحسن في مثل هذا الحال أن يقوم المُرَبِّي بإدلاء النصائح للابن؛ لأن هذا الغضب قد استولى على ذهنه، فلم يعد يُميِّز ما ستقوله له، ولا يسمع أبدًا كلمات المواساة أو التهديد التي توجه إليه[1].

وإذا كان الرجل الكبير إذا غضب يضعف استيعابه للأمور، فالطفل من باب أولى، وقد جاء في السنة النبوية قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يقضيَنَّ حَكَمٌ بين اثنين وهو غضبان**»[2]، وذلك لإغلاق الأمور على ذِهنِهِ بسبب الغضب، فيضعف إدراكه حينذاك عن اتخاذ قرار مُعَين، أو تقرير مصير.

من المُنَاسب إذا جاء الطفل غاضبًا أن يُعطَى فرصته للتعبير عمَّا يُؤلمه أو يُؤذيه، وفي هذه الحال ينبغي أن يقوم الوالد بدَورِ المُستَمِع الجيِّد حتى يعبِّر الابن عن كل ما يريد، وليُخرج ما في صدره من الشكوى، فإن هذا كفيل بأن يخفف رَدَّةَ فِعْلِهِ

(١) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص٥٢).

(٢) رواه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧).

بحيث لا يتخذ قرارًا يضرُّ به وبمن حوله.

أحيانًا لا يريد الأبناء أكثر من الاستماع، وإذا استمعت إليه فينبغي الابتعاد عن المقاطعة بكثرة الأسئلة، أو استعمال كلمات: «لمَ؟»، «هل؟»، فقط دعه يتكلم، وابتعد عن الوعظ والتوجيه المباشر، فعندما تَحصُل الأخطاء، فذلك لا يكون الوقت المناسب لتعليم المخطئ أي شيء حول شخصيته، بل من الأفضل أن نتعامل مع الحادثة فقط وليس مع الشخص.

فمِن رُدود الفعل المُتَوقَّعة في مثل هذه الحَال: أن يقاوم الأطفال الجدال مع والديهم، وينفرون من الخضوع للوعظ أو التحدث عنهم أو انتقادهم، ويشعرون بأن الأهل يتكلمون كثيرًا[1].

بل ومن خلال الدراسات المَنُوطة بالأطفال، تقَرَّر أن الطفل إذا اشتكى من مشكلة ما، ووجد من يستمع إليه، ولا يزيد على الهمهمة المشعرة بأنه يتفهَّم شعوره، أنَّ ذلك يؤدِّي إلى أن يذكر الطفل سبب غضبه، وكيف تصرف، ووصوله إلى

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٢١).

حَل في مشكلته، وأنه حلَّها بطريقة كذا وكذا.

وقد لا يحتاج الابن في أول درجات الغضب إلى الاستماع، بل ولا يرغب بأن يتحدث بما حصل له، فلا ترغمه على الحديث، فقط احتَضِنْهُ، فإن الاحتضان والملامسة الجسدية لها دور كبير في تهدئة النفس، فأحيانًا يداهم الأبناء خصوصًا الصغار شعور بالخوف، أو الخيالات المزعجة، أو الغَيرة على الوالد، فيتحول ذلك إلى مشكلة مفتعلة يغضب من خلالها، ليُحس به الوالد أو الوالدة، فإذا احتضنه، استشعر عند ذلك الأمان، ويتشبَّع بالحنان، فإذا لم يجد من يصل إلى حقيقة ما يشعر به؛ زادَ غَضَبُه وهيجانه، فكالمعتاد، حين يجد الأطفال صعوبة بالتحمل، فإنهم يصبحون غاضبين، ويلقون باللوم على الآخرين بشأن مأزقهم، وهذا عادة ما يُغضب والديهم، والذين بدورهم يقومون بلوم أولادهم ويقولون أشياء يندمون عليها لاحقًا، وتبقى المشكلة بدون حل[1].

إن شعور الخوف بفقد الوالدين حسيًّا أو شعوريًّا رُبما يجعل

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٢٧).

الابن مضطربًا، فتخرج منه هذه التصرفات غير المتزنة، وكلما كان الوالدان أبعد في فهم شعوره ازداد حاله سُوءًا .

ولذلكَ منَ الخطأ عندَ غَضَب الابن: الإكثار له من النصح، أو -وهو أقسى من ذلك-: أن تُستعمل معه لغة التهديد ليَكُف عن الإزعاج، والناظر في أحوال البيوت يرى تطور المشاكل فيها بين الأهل والأولاد يسير في متابعة معروفة، يقول الولد أو يفعل شيئًا خاطئًا، تكون ردة فعل الأب شيئًا مُهينًا، يرد الولد بشيء أسوأ، يثور الوالد بتهديدات عالية النغمة، ثم تَدُب الفوضى[1].

الأمر ليس بهذه الطريقة بالتفكير، الأمر أن هناك مشَاعِرَ تريد من يتعامل معها بواقعية.

أقول دائمًا: لو رجعتَ إلى سالف أيامك استطعت معالجة ابنك، لربما اعترتك بعض هذه الحالات، فكنت تريد من يتفهم شعورك ويحتويك، فالآن أنت في ساحة التجربة مع شخصٍ يقول لك حاله: «**أنَا أنت في سابق أيامك؛ فاعمل مَعِي**

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص٥١).

ما كنتَ تتمنَّى أن يَصنَعَهُ معك والداك».

تأكد أن شعورَ الأبناء بخُشُونة الحياة يُلجِئُهم إلى أن يقوموا بإرسال رسائل غاضبة، وقِسْ هذا على الحياة الزوجية، فحين يفتقد أحد الزوجَيْن الطرف الآخر؛ فإنه يفتعل مشكلة هو لا يَقصدُها بقدر ما يريد أن يوصل إلى الآخر رسالة مفادها: «**إنِّي أفتَقِدُك**»، ولكن لا يُرسِلُها صريحة؛ لأنه يرى أن الشعور بالمحبة والقرْب، يفترض أن يكون موجودًا بين الزوجين كواقع، فيلجأ إلى إرسالها عن طريق مشكلة مفتعلة بعَتَبٍ، وقد يكون عَتبًا مُزعِجًا.

أذكر ذات مرَّة أنه جاءت إليَّ امرأة تشتكي من ابنتها أنها دائمة الغضب، ولا يعجبها شيء، رغم أنها تُوَفر لها كل المتطلبات، فقلت لها: ولكنها تفتقدك، قالت: كيف وأنا معها كل وقت، قلت: تفتقد أحاسيسك، عاطفتك، احتضانك، أن تكون العلاقة عاطفية أكثر من مُجَالسة الأجساد دون القلوب دون استشعار ما بها، ما تفعلينه من شراء الماركات والإغداق عليها بالنعيم والترف مع الانشغال الشعوري عنها لا يُعَوضها،

تريد أُذنًا صاغية ولو لم يكن ثمة توجيه أو نصيحة، تريد تعبيرات الوجه التي تُحِس من خلالها أنك تفهمين حقيقة الشعور الذي تمر به، أحيانًا الشاكي لا يريد أن تقول له: «إن فعلك صواب»، بقدر ما يريد أن تعطيه الفرصة ليقول: «إني أخطأت»، حتى يثق بك فيحدثك بكل ما يريد دون الخوف من أن تتسلط عليه بالنقد.

ذهبَت وقد فعلت ما أخبرتها به، ثم رجعت إليَّ بعد أيام، فقالت: لقد أصبحت ابنتي شخصية أخرى، لقد اكتشفتُ فيها أسلوبًا جميلًا للحوار، طريقة إبداعية في تركيب العبارات، فقط لأني استمعت إليها، وأعطيتها الثقة بأني أشعر بما تقول.

من عجيب ما مَرَّ بي -وهو ممَّا يُثير الدَّهشة-: أنه في بعض الدول البعيدة عن رحمة الإسلام، والتي يتعامل أهلها بمادية حتى انقطعت بينهم أواصر التواصل، قاموا بتوفير خدمة غريبة في بعض الأماكن بنظير مادي، وهو أن المرء يستأجر له شخصًا ليجلس معه في مكان هادئ، فقط ليستمع إليه حتى يتكلم بكل ما يشعر به، وإنما فعلوا ذلك كعلاجٍ نفسي

توصلوا من خلاله أن المرء يحتاج إلى من يستمع إليه!

وأنا أتحَدَّث عن تجربتي الخاصة: فقد قضيت زمنًا من عمري يقرب من الخمسة والعشرين عامًا، وأنا أستمع مشاكل الناس على جهَةِ التطوع لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، مما جعلني أعرف نوعية المشكلة من أول دقيقة يتكلم بها صاحبها، وقد مَرَّ بي كثير من المشكلات التي أحكُمُ عليها أنه ليس لها حل عندي أبدًا، بل وحتى صاحبها ربما يتيقن من هذه النتيجة أيضًا، ولكنه فقط أراد أن يفضي بما في صدره إلى شخص لا يعرفه، ليُخرج نفثات صدره الحارة التي تكاد تخرق أضلاعه.

فإذا توصلنا إلى هذه النتيجة ساعدَنا ذلك على فهم شعور الابن، فنوفر له ما يحتاجه من الأمان.

حين يغضب الطفل لسبب ما، ينبغي الالتفات إلى أسباب غضبه بالقدر الذي نفكر فيه لمُعَالجة هذا الغضب؛ لأن معرفة أسباب الغضب في كثير من الأحيان يكون سببًا للعلاج وإنهاء هذه الحالة المزعجة، فينبغي تفهم شعور الابن.

فأحيانًا قد يُحدِث موجة من الغضب والإزعاج بسبب

فَقْدِهِ لجانبٍ عاطفي، أو تميُّزٍ معتاد، فيرسل رسالة مغلفة بالصراخ والعويل وشد الأعصاب، لدرجةٍ تصيب من حوله بالضجر، **ولذلك يشير بعض علماء التربية**: أن العلاج الناجح أن يُحتضن الطفل حتى تسكن نفسه وتهدأ، وليس من الصواب أنه إذا غضب الابن تتلقاه دائمًا بالغضب المضاد، وتبادل الصرخات والتخويف، فإن معرفة العلة التي بسببها تحوَّل إلى حالة من الهيجان، أمر ضروري ليعيده إلى جادة الصواب وباحة الهدوء.

كثيرًا ما ينبه المُختَصون في مثل هذه الحال إلى ضرورة إيصال فكرة للابن بأنك تفهم مشاعره؛ لأن الغضب قد يكون شكوى ابنٍ خجول يستحي من الإفصاح، أو مُهمَلٍ يحتاج إلى شد الانتباه، وفهم المشاعر يعكس فهم المقابل له.

لا نتصور أننا إذا طبقنا قواعد التربية أننا سنحقق المثالية مع الأبناء، بل من الطبيعي أن تظهر هذه الرواسب، فيوجد الابن الغضبان والباكي وكثير الحركة وغير ذلك؛ ولذا من مقتضى العيش الطبيعي أن يحدث للطفل حالة من الغضب بسببٍ ما.

وإذا عرفت سبب الغضب وعالجته شعوريًّا، هنا تنتقل إلى علاج الحالة على أرض الواقع، ولا يعني ذلك التسليم له بإعطائه ما كان سببًا في غضبه أو منعه منه، فإنك لابد أن تعالج الحالة الغاضبة على حسب القواعد التي تقود إلى النجاح، وليس التسليم للابن لأنه غضب.

وأهمُّ ما يقُود الابنَ إلى الرجوع إلى طبيعة الاتزان: التعاملُ مع الحدث من قِبَل الوالدين بغاية الهدوء، والحوارِ الهادئ بعد سكون الحركة، وفتح المجال إليه ليتحدث بما في نفسه، وما يقابله من الإصغاء لما يقول، فإنَّ مقاطعة المتكلم تزيد الأمر تعقيدًا، وتحبس الكلام في داخله، وتمنعه من التعبير؛ فيزداد ألمًا لا يجد وسيلة للتعبير عنه إلا بإحداث موجة من الغَضَب.

وقد تتنوع أساليب الحل لهذه الحالة المستعصية، لكن يكفي أن نعطي أنفسنا مجالًا لنعرف عِلَّتَهُ حتى نُعَالِجَها بعد ذلك.

كم هو جميل أن ننظر إلى الغضب أنه حالة مَرَضية؛ لأنه إذا أصبح طبيعة له أفسد حياته، وسيصطدم بأناس لا يتحملون

غضبه، فيحدث له كثير من المواقف المؤلمة أو المهلكة، ولذا لابد أن يعالجها الأب الرحيم والأم العطوف، حتى لا تستمر معه على نحو مخرِّب، ولا يكون الحل محصورًا بسَبِّه وشتمه وتوبيخه ليترك ما هو عليه ظاهريًّا، وهو يتقد نارًا في داخله، بل يحتاج الأبناء إلى إيواء الوالدين نفسيًّا وعاطفيًّا؛ لينقذوهم من جحيم هذا السلوك الذي سيدمر صحتهم وعلاقاتهم مع الآخرين، ومهما يكن من أسباب علاجية فإن مفتاحها هو تفهم المشاعر.

صداقات الابن

لأنَّ الإنسان مدَنِيُّ الطَّبع، فهو يحتاجُ إلى أن يُكَوِّن صداقات، وأن يكون له أصدقاء يستأنس بهم، ويتخلص من جَوِّ الرَّتَابَةِ والمَلَل، فجَميل أن نُشعِر الابنَ أن له حقَّ اختيار من يُصَاحبه، وهذا قد يكون من باب زرع الشعور الوجداني الذي يُنَمِّي ثقته بنفسه، وأنه قادر على تحديد مصيره في بعض الجوانب، مع أنه من ناحية الواقع الفِعلي لابدَّ أن يُمنع من إقامة بعض العلاقات السَّلبية التي تُفسد حياته وهو يتَوهَّمُها صداقة.

كما أنه من الضَّرورة بمكان التَّنبيه على أنه لا ينبغي أن تُفرَض على الابن صداقات لا يُحِبها أو يرفضها، فإن الناس لهم ميولات مُختلفة، وقد يكون طبع الابن أو ميوله أو أخلاقه لا تستقيم مع شخص آخر، أنت تَوَدُّ أن يكون صاحبًا لابنك وهو يرفض ذلك.

فبعض الآباء والأمهات بحُجَّة أن هذا الابن أو هذه البنت من الأقارب أو أبناء الأصدقاء أو الصديقات، يقومون بمحاولة فرض صداقاتهم على ابنهم، أو فرض الابن عليهم وهم لا يُريدون، وهذا خطأ، ولو أنَّ الأب أو الأم مال إلى سماع ابنه وأنصت إليه لربما باحَ لهما بما يُعَانيه منهم، أو عدم شعوره بمحبتهم حتى ولو كان بلا سبب، **فأنت مأمور أن تُعين ابنك ليستمرَّ في سيره، لا لتضع في طريقِهِ المُعَوِّقات، فمسألة الصداقة وتأليف القلوب لا تأتي بطريقة القهر والإلزام؛ بل تخضع للاختيار.**

فبَعضُ الآباء يُهَاجم ابنه هُجُومًا شرسًا: «أنت لا يُعجبك أحد، يظهر أن طبعك مُمِل، لماذا لا يُصاحبك أحد؟»، إلى آخر هذه العبارات المُؤلمة، دون أن يُعطيه فرصة للتعبير بحجة أن والد هذا أو ذاك من ذَوِي الأخلاق الحسنة، وما أدراك أن ابنه على طريقته الحسنة، لعل ابنه مُنحَرِف السلوك، وابنك قد لاحظ ذلك، لكن لم يستطع أن يفصح لك بذلك، بسبب هجومك غير المُبَرَّر لدرجة أنك لم تُعطِهِ فرصة للتعبير.

وقد يتصرف بعض الآباء مثل هذه التصرفات الخاطئة بسبب قوة العاطفة تجاه ابنه؛ لأنه لا يريد الابن أن يبقى منفردًا بلا أصدقاء، مُتنَاسيًا أن ابنه ربما يتعرض لبعض المُضَايقات التي لا يستطيع أن يفصح عنها، إما خوفًا أو بسبب أنه لم يُعط القدر الكافي من الثقة ليتحدث بما يشعر.

الأبُ الناجح هو الذي يُراقب سُلوك ابنه بطريقة يَصِلُ من خلالها إلى ما يرجوه من جني الثمار اليانعة، فيتعامل وِفْق ما توصل إليه من النتائج دون إحداث ضجيج، فيحذر من أن يكون ابنه منطويًا على نفسه، ويسعى إلى معالجة ذلك، لكن في الوقت ذاته لابدَّ أن يترك له مجالًا ليُقَرر ماذا يريد بشأن علاقاته الخاصة، فلا نتصور أن إرغامَنَا للابن في إقامة علاقات يعني أنه شخص طبيعي، وأنَّ عدم ذلك يعني العكس، بل لعل في قلة علاقاته ما يدل على كونه شخصًا طبيعيًّا ذكيًّا يُمَيز ما يَضُره فابتعد عنه!

ويمكن كَسر خوف الوالد من بقاء ابنه بلا عَلاقات: أن يُعوِّضه هو بمُصَاحبته والتحبب إليه وبالتالي توجيهه، فيغرس

فيه من الأخلاق والثقة ما يستطيع معه بعد ذلك أن ينفتح على الآخرين بلا تَرَدُّد.

وربما يرى بعض الآباء أن قيامهم بمُرَافقة الابن أكثر الوقت من الأمور الشَّاقة على النفس، وقد يكون كذلك، **لكن مما يُسَلي ويُهوِّن الأمر**: معرفة أنَّ هذا التصرف مرحلة مُؤَقَّتة ليست على الدوام، وأن يتذكر أن الذي يريد أن ينتج شخصًا يفرح به فلابدَّ أن يُعطيَه من جميل أيامه.

الأطفال واللعب

الطفل نفس بشرية تحتاج إلى الانبساط، وقد يحتاج من الناحية الطبيعيَّة إلى اللهو واللعب، فلابُد أن يُتْرَك له مجَالٌ للترويح ولتفريغ الطاقة الجَسديَّة.

كما أنَّ اللعبَ أيضًا وسيلة لغرس التربية، بحيث يتعلم الابن الضوابط التي لابدَّ أن يُراعيها دون إثقال عليه، وأيضًا توجيهه إلى ما ينفعه دون ما يَضُره، مع مُراعاة ألَّا يكون اللعب مَجالًا للنصائح والتوجيهات المُمِلة، أو أن يستشعر الطفل وكأنه موضوعٌ تحت المراقبة، بل يترك له مجال ليلعب كما يريد مع متابعته من طَرْف خفيٍّ مَخَافة أن يؤذي نفسَه؛ **لأن المُبَالغة في الشعور بحمايَةِ الطفل تُوَلِّد المَللَ من قِبَلِهِ، كما أنها تعطي نوعًا من الشعور بالضعف؛ فلا ينطلق بمباشرة هوايته كما يُريد، وربما يُصبحُ غير قادرٍ على إخراج إبداعَاتِهِ.**

فمَثلًا: لو أخذت ابنك الصغير لتعليمه السِّباحة، فيَحسُن بك ألَّا تبقى بجانبه؛ لأن شعوره بالأمان بوجُود الوالد ربما يجعله مترددًا في التعلم، لكن في الوقت ذاته ممكن أن تُبقِيَه مع مدربه، مع مراقبته من مكان بحيث تراه من خلاله ولا يراك، وقد جَرَّبت هذا ذات مرة مع ابني فتعلم في فترة قصيرة، مع ضرورة التأكيد على أن تأخذه إلى مكان آمن من حيث الأشخاص؛ وأن يكونوا في مثل سِنِّه، فلا يُتْرَك الصغير مع الكبار.

كما ينبغي في هذا المَجَال: أن يُتْرَكَ للابن حرية اختيار الميول الذي يحب أن يلعب به، دون فرض إطار معين عليه، إلا ما يكون فيه سَببٌ لإفساده، كما يترك له الحرية في اختيار ما يناسب مستواه وميولاته الخاصة.

ومن المستحسن ألَّا يُتدخل في شأن الطفل أثناء انصرافه إلى اللعب، إلا إذا ترتَّب عليه فواتُ واجب، أو ما لابدَّ منه، ولا يُطلَب منه القيام ببعض التكاليف أثناء استغراقه في لعبه، فإنَّ قطْعَ لهوه بتكليفٍ معين دون إخبار مسبق يؤدي إلى موجة من الغضب، ورَدَّة فعل غير جيدة؛ بل وحتى في حال الطلب

منه بقطع اللعب فإنَّ من الأفضل أن يُجعَل له مجالٌ للاختيار الصوري، فيقال مثلًا: «سنذهب بعد ساعة؛ أو نصف ساعة»، حتى يكون مهيأ نَفسيًّا لذلك، أو يقال له: «أعلم أنك تريد اللعب؛ لكن لابدَّ أن نفعل كذا وكذا»، فإن هذه الكلمات كافية بإشعاره أن له دورًا في الاختيار، وهذا مما يخفف الضغط النفسي عليه، ويُسهِّل استجابته لما عَرضْتَ عليه.

ويجبُ الحذر حين يُخطئ الابنُ في سلوك مُعيَّن أن نعاقبه بسحب ألعابه التي يحبها وهو يلعب بها، بل يجب الفصل ما بين الأمرين، فَأدِّبه على خطئه، ومُمكن أن تقنِّن استعماله لهذه الألعاب، لكن بوقت منفصل عن وقت اللعب، ليفهم أن المنع أحيانًا من باب التنظيم لا العقوبة، **فإنَّ من الأخطاء التي يفعلها بعض المُرَبِّين: أنه إذا أخطأ الابن في أمر لا علاقة له باللعب، عاقبوه بسَحبِ ألعابه، أو منعه من اللهو بها.**

وهذا لا يعني أنَّ الابن لا يُمنع من الألعاب إذا رأيتَ ضررًا مُحَقَّقًا عليه من جَرَّاء ذلك، أو فوات واجب، أو كون اللعب قد أصبح سِمَةً له حتى ألغى شخصيته الجادة التي يحتاج إليها في مجريات حياته.

ويَرَى المُتخصِّصون ضرورة تشجيع الطفل على اللعب الجماعي حتى لا يعتاد الانطواء، وهذا جيِّد، لكن من المهم أيضًا ألَّا تفرض عليه أشخاصًا لا يحبهم، وربما أنهم سيئون، فيحتاج أن تعطيه الثقة ليصرح لك بما يشعر به تجاههم.

ومن الضروري أن يتعلم الابن أن بعض ما يقوم به الأولاد والبنات ليس من قبيل اللعب؛ بل هو من العبث والاعتداء على حقوق الناس وإيذائهم وإلحاق الضرر بهم، ومن هذه الزاوية ممكن أن نستغل هذا الجانب لغرس بعض الآداب في أبنائنا، لكن تكون من قبيل الكلام العرضي، ولا يلزم أن تكون أثناء ذهاب الابن إلى اللعب، لكنها توجيهات لا تُهمل.

وينبغي أن يعلَّم الابن الصغير ألَّا يلعب مع كبار السنِّ الذين هم ليسوا من جيله، وهذا من الحماية اللازمة للابن لأنه قليل الإدراك، وربما يؤدي ذلك إلى اختلاطه بمن يحوي أفكارًا فاسدة أو نفوسًا مريضة.

ومن الجميل أن يشارك الوالدان الأبناء بين فترة وأخرى في لعبهم، وإضفاء روح المرح عليهم، والنزول إلى مستواهم؛

لأن هذا يؤدي إلى الشعور بالاطمئنان، وتوثيق العلاقة بين الوالد وأبنائه، فربما يَمتَطُون ظهره، وتمثيل نفسه طفلًا معهم في طريقة حركاته، ويجرئهم على نفسه؛ لأنَّ كسر الحاجز مع الصغير يُعطيه الثقة لأن يصارح والده في أمر كبير، لشعوره ببساطة والده وعدم وجود حواجز بينهما.

وقد قال عُمرُ بنُ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنه ليُعجبني الرجل أن يكون في أهل بيته كالصَّبي، فإذا ابتُغِي منه وُجِد رجلًا»[1].

وقال ثابت بن عبيد: «كان زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أفكه الناس في بيته، فإذا خرج كان رجلًا من الرجال»[2].

والمرء كلما كان في بيته -مع زوجه وأولاده- سَهْلًا لينًا قريبًا، أدى ذلك إلى أُنْسِ البيت وسعادته، وغشيانه بالسكينة والشعور العَاطفي.

ومع ضرورة الحث على مسألة اللعب مع الأطفال، ينبغي للوالد ألَّا يعمد إلى ارتكاب الأخطاء التي يتوهمها الناس من

---

(١) «شعب الإيمان»، للبيهقي (٧٨٥١).

(٢) «شرح السنة»، للبغوي (١٣/ ١٨٣).

قبيل اللعب، **فتقُول الوالدةُ لابنها**: «اضربني، أو: اضرب يدي»، لتَراه مبتهجًا، فهذا ينشئه على أفعال العقوق والغضب والعدوانية، فاللعب له مجالاته، **والمُطالبة بإزالة الحواجز بيننا وبين أبنائنا لا تعني أن نُشَجِّعَهُم على ارتكَاب الأخطاء.**

بكاء الأطفال

لأننا متفقون على أن الابن يمتلك مَشَاعِرَ كغيره من الناس؛ بل وإن مشاعره أرَقُّ من غيره؛ نظرًا لطفولته، واستواء الحقيقة والخَيَال لديه، خصوصًا في بعض مراحل حياته.

وقد تجري حول هذا الطفل بعض المواقف التي تجعله ينفجر باكيًا، وهذا البكاء لا يُتعامل معه بنفس المعطيات وطريقة العلاج، فربما يكون البكاء بسبب طلبه شيئًا معيَّنًا، فإذا لم يُلَبَّ له انفجَر باكيًا، وملأ الدنيا ضجيجًا، وهذا يمكن أن يُسعى إلى تهدئته لكن ليس بالضرورة أن يُعطى ما مُنع منه، حتى لا يتخذ هذه الطريقة عادة له كلما أراد تلبية طلباته، لكن في الوقت ذاته لا يخوَّف أو يُمنع من البكاء بطريقة ربما تكون عكسية الآثار، قد تؤدي إلى أمراض؛ كالفأفأة أو التأتأة، بل يُترك ليبكي مع ملاحظته من بعيد؛ حتى لا يؤذي نفسه بسبب

ضعف إدراكه، فإن بعض الأسر إذا بكى الصغير منعوه من البكاء؛ لأنهم لا يريدون الإزعاج، وقد يكون هذا المنع بطريقة التهديد والتخويف، فيؤدي إلى تَعَثُّر لسانه.

ولذلك، اتركه ليبكي مع المراقبة الخفية، فإنَّ أول درجات الخطأ التربوي أمام هذا التصرف أن تعطيه ما منعته منه إذا بكى؛ لأنه سيتخذ هذا سلاحًا لتحقيق ما يريد، كل هذا بسبب الشعور بالذنب الذي يُحِسُّه بعض الآباء والأمهات بسبب المنع.

قد تكون عاطفيًّا وتتألم قلبيًّا لبكاء ابنك، لكن علمُك بمقدار النفع العائد عليه بسَبب المنع يُهَوِّن عليك هذا التصرف، مع أنه من الواجب معرفته أنه لا ينبغي المصير إلى هذا المنع في شيء ليس في حجبه عنه مصلحة، وكان الإذن له به سيُجَنبنا المزيد من الإزعاج والضوضاء، والإحساس بالذنب لكون القرار كان خاطئًا من أصله.

ومع الأسف الشديد، هناك نوع من البكاء لا ينتبه إليه الآباء والأمهات، ولذلك يخطئون في طريقة علاجه، هذا إن عالجوه أصلًا أو فكروا في طريقة لعلاجه.

أحيانًا تصيب بعض الأبناء نوبة بكاء لا يُعرَف أسبابها ولا مصدرها، بل لا يكون لها سبب ظاهر أصلًا، فيتفاجأ بها الوالدان، ولذلك يحارون ماذا يصنعون؟، ويكثرون من الأسئلة للابن: ما بك؟، لماذا تبكي؟، ما الذي حَصَل؟... وهو في وادٍ آخر.

يأتي هذا النوع من البكاء أحيانًا للأولاد بسبب ضيقٍ في الصدر بسبب بعض العوارض الشيطانية، أو بسبب الخيال عند بعض الصغار؛ كأن يتَخَيَّل موت أبيه، أو أن أمه ستتركه وحيدًا، فينطلق أحدُهُم بالبكاء، وهذا أمر من الأهمية بمكان أن يُلتفَت إليه.

وأفضل الطرُق لعلاج هذا النوع من البُكاء مُواسَاة الباكي ولو كان كبيرًا، بالفعل أكثر من توجيه الأسئلة؛ لأنه في حالٍ لا يُسمح معها أن يجيب على الأسئلة التي لن تُجدِيَ نَفعًا، بل الأفضل في مثل هذه الحال احتضانه ليشعر بالأمان، أو مُمَاسَّة بدنه بالمسح على رأسه والأخذ بيده، فأحيانًا تأتي هذه الحالة للأبناء في وقت النوم، فالأخذ بيده وقبضها يشعره بالأمان،

وأحيانًا إذا كان كبيرًا تحتضنه أو تُعطيه الفرصة ليَبكي مع قُربك منه دون أن تتكلم حتى يرتاح.

فالبكاء ليس دائمًا عنوان الضعف أو الانهيار بقدر ما يكون تعبيرًا عن المَشَاعر، فيحتاج صاحبها إلى الشعور بأن هناك مَن يفهمه، **وليس سرًّا أن يُقال**: إنه ما من أحدٍ إلا وعنده فيضٌ من الدموع تريد أن تخرج، لكن المسألة فقط تعود إلى التوقيت، وأمام مَن تخرج.

لا يَكُن هَمكَ مَعرفة الدَّافع من البكاء، بقدر ما تسعى إلى تقديم المساعدة إليه؛ ليتجاوز عَقَبَةَ الحُزن، ويشعر بالراحَةِ.

مما مرَّ بي من المواقف: أن أحد الشباب كان مسافرًا إلى مكة المكرمة، وهو في الحرم ورد إليه خبر مُفجِع بوفاة طفل صغير من أقاربه، يقول: فانهرت حتى إنني بدأت أبكي بلا شعور، وانطلقت على وجهي كالمُغَيَّب والناس ينظرون إليَّ وربما يتساءلون في أنفسهم عن عِظَم مصابي، فوالله ما انتبهت حتى تقدم نحوي أحد عَسكرِ الحَرَم، فاحتضنني وانفجر معي بالبكاء، والله ما نطق بحَرف، وهنا وَعيتُ على نفسي، ورُدَّ

إلَيَّ عقلي، وأفقتُ حتى أبصرت مكاني، ثم مضى وتركني دون أن يتلفظ بكلمة.

فإذا كان هذا الأمر يقع مع الكبار، ألا تظن أن حصوله مع الصغار من باب أَوْلَى؟

ذهول العقل، وضيق الصدر بسبب أمرٍ لا يمكن تفسيره هو حالة نفسية قد تطرق باب أي أحد مهما كان عمره وقدره، والأطفال من هذا العالم الذي تحدث فيه هذه الوقائع، **فمِن أجل أن نُعيدَ تَوازُنَه يجبُ أن نتعامَلَ معه بواقعيَّة؛ حتى نستطيع أن نُساعِدَه.**

من الطبيعي جدًّا أن يجعل الطفلُ البكاء وسيلة للتعامل مع مَن حَولَهُ، وعليه فيبقى هذا السلوك حالة تستدعي نظر الوالدين؛ ليتخذوا بعد ذلك الطريقة المناسبة للتعامل معها.

قد يكون الوالدان أحيانًا هم السبب في بكاء الأبناء بصورة مستمرة، وعلى أي شيء، وذلك من خلال تعويده على وضع مُعَيَّن، فإذا افتقده بكى، ولذا فلا يَحسُن أن يعتاد الطفل على أن يُحمل على الأيدي غالب وقته؛ لأنه ما إن يُوضَع بعد ذلك

على الأرض حتى ينفجر باكيًا، ولا يحسن أن تُلبَّى جميع طلبات الابن دون استثناء؛ لأنه ما إن يمنع بعد ذلك من شيء حتى يبكي، ويُحدث ضوضاء في المنزل أو في أي مكان يكون فيه، ولذلك كم ترى من صور الضغط التي يمارسها الأطفال في الأسواق وأماكن اللهو على الوالدين، ليُلجِئُوهم إلَى تنفيذ طلباتهم.

من الخطأ أن نجعَلَ تنفيذ طلبات الطفل علاجًا ليتوقف عن البكاء، فالطفل يريد كل شيء سواء كان بحاجة إليه أم لا.

يدخل الطفل إلى مكان الألعاب، فيلعب، ويلعب، حتى إذا أرادت والدته الانصراف لجأ إلى البكاء!

يدخل مكانًا ليشتري لعبة أو طعامًا، فإذا همَّ والده بالانصراف، انطلق في البكاء!

والطفلُ ذَكي ويُمَيِّز ردود أفعال والديه، فإن رَضَخُوا إلى طلباته، جعل هذا وسيلة لتعامُلِهِ معهم في كل مَرَّة، وقد يستغل حياءَ الوالدين من نظر الناس وشعورهم بالإحراج من بُكَائه، أو لأنهم يريدون التخلص من إزعاجه.

ولذلك لابد أن نتعامل مع هذا السلوك كحالة طبيعية،

فلو بكى الابن، يُترك له مجال قليل في البكاء، ثم يقال له: «تكلم حتى نسمعك، ما الذي تريد؟»، فيعتاد التحدث مع والديه، وبيان ما يُريده عن طريق الكلام لا البكاء، ويبقى معرفة أنَّ لكل عُمر ما يناسبه من طريقة الحوار.

ولذلك من المُستَحسَن: أن يحافظ الأب والأم على هدوئهم حين يبكي الأطفال، ولا يثوروا غاضبين بسبب الإزعاج الذي يُحدِثُه الابن، كما أنه مما ينبغي ألَّا ينطلقوا مُسرِعِين إلى الطفل كلما انطلق باكيًا، فمن المتعين أحيانًا إذا بكى بدون سبب أن يُترَك حتى يُنهي بكاءه، ولا يُسأل عن السبب، مع مراعاة أن يبقى تحت النظر بخفية، لئلا يتصرف تحت انفعاله تصرفًا مؤذيًا أو مُخَربًا.

ومع ذلك، فليس كلُّ بكاءٍ للأطفال لا يُلتفت إليه، فقد يبكي الطفل بسبب ألم في أذنه أو بطنه ونحو ذلك، فلابد من أخذ ذلك بعين الاعتبار، كما أنه قد يقوم من نومه باكيًا بسبب حلم مزعج أو خاطرٍ مُقلِق، ففي مثل هذه الحال لا ينبغي تركه؛ لأن الطفل في بعض مراحله تستوي عنده الحقيقة والخيال، فقد يُخيَّل إليه موت أمه، أو فقدان أبيه، أو أن تمر

به قصة فيخيَّل إليه على إثرها أن يتركه والداه، فلابد في مثل هذه الحال أن يُحتَضَنَ ويُواسى، وأن تُتَفهَّم مشاعره، لنساعده على تخطي هذا الألم حتى تسكن نفسه.

كما أشير هنا إلى أن بعض الأبناء حتى مع تقدمه في العمر لا يُحسن التعبير عما في داخله، أو أنه لا يميل إلى الحديث عما مرَّ به حياءً، أو خوفَ الاصطدام بمن لا يستطيع فهمه، فيكون البكاء وسيلة له لإخراج ما في صدره من الحرارة والحزن، وقد يكون هذا البكاء بسبب أعراض شيطانية، فيشعر الابن بضيق صدر، فينفجر بالبكاء دون شعور، فهنا يجب أن يُعالج بتفهم مشاعره واحتضانه والتخفيف عنه؛ لأنه في حال لا تمكِّنه من سماع أحد.

وقد مرَّ بي من الحالات ما جعلني أعرف ضعف الإنسان وقلة حيلته مهما علا قدره وكبر عمره، فقد رأيت غير ما مرة رجلًا كبيرًا عاقلًا محبوبًا، قد انفرد عن الناس في ناحية، وانطلق يبكي بكاء الطفل، والناس يمرون به ويسألون ما بك؟!، وهو كالمغيَّب، لا يشعر بما يقولون، بل لا يشعر بوجودهم، فعلمت أن حاجته للاحتضان وإمساك يده أكثر من حاجته للسؤال عن

أسباب بكائه، وفعلًا فعلت ذلك حتى هَدَأَتْ نَفسُهُ.

بواقع الحال علمت أن دوافع البكاء كثيرة، وأحيانًا تكون بلا أسباب ظاهرة، فيحتاج صاحبها إلى العلاج أكثر من الحاجة إلى معرفة السبب الذي أدى إلى بكائه، وعجبت ذات مرة من شاب انطلق باكيًا بسبب ضيقٍ في صدره، ووقفَ على رأسه بعض قليلي المعرفة من أقاربه، يهاجمه وينتقد سلوكه، فزاد هَمه وحزنه؛ لأنني علمتُ أنه كان بأمسِّ الحاجة إلى تفهُّم شعوره أكثر من أن يقدموا إليه حلًّا؛ لأن هذا البكاء قد يستعمل أحيانًا كحل لإراحة النفس مما أصابها، وليس وسيلة ضعف على كل حال.

وقد جاء عن سليمان بن عبد الملك -أحد حكام بني أمية- أنه فَقَدَ ابنًا له، فدخل عليه وجهاءُ القوم يُعَزُّونه، فقال لبعضهم: «إني لأجد في كبدي جمرة لا يُطفِئُها إلا عبرة، فقالوا: اذكر الله يا أمير المؤمنين، وعليك بالصبر، فنظر إلى رجاء بن حيوة كالمستريح إلى مشورته، فقال له رجاء: أَفِضْها يا أمير المؤمنين، فما بذلك من بأس، فقد دَمَعَتْ عينا رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ابنه إبراهيم وقال: «العين تدمع، والقلب

يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربَّنا عَزَّوَجَلَّ»، فأرسل سليمان عينه فبكى حتى قضى أَرَبًا، ثم أقبل عليهم وقال: **لو لم أنزِف هذه العَبرَةَ لتَصَدَّعَت كبدي**»[1].

فإذا كان هذا حال الكبار وأصحاب البأس، فكيف بطفل صغير أو شاب تدور في أذهانهم الأفكار والخيالات، أو تَعرِضُ لهم بعض الأحوال الشيطانية، أو الضغط النفسي والاجتماعي؟، فاحتواؤهم من أجل تخطي هذه العقبات من باب أولى.

(١) «التذكرة الحمدونية»، لمحمد بن الحسن البغدادي (١/ ٤٨٨).

مشاجرات الأطفال

من الطبيعي ألَّا يخلو بيت من حدوث المشاجرات بين الأبناء، وهذا عادة مما يسبب الإزعاج للوالدين، وتصيبهم الحيرة حيال كيفية التصرف لعلاج هذا السلوك، بل ربما تصل الحال ببعضهم أن تقوده إلى الشعور بالعجز عن تربية أبنائه، لكن الذي ينبغي في مثل هذا الحال أن نتعامل معها بواقعية، وخارج نطاق الضَّغط النفسي، وأنها حال عابرة وليس سلوكًا دائمًا، فإن مثل هذا الشعور يجعلنا قادرين على تلَمُّس الطرق التي نُعَالِجُ بها هذه السلوكيات.

إننا حينما نتعاملُ مع هذا السلوك على أنه أمر طبيعي، يحملنا ذلك على أن نسعى للعلاج الدائم الذي ليس بالضرورة أن يُنهِيَ الشجار من المنزل، لكن على الأقل يجعلنا هادئين متأقلمين في حال حصوله مرة أخرى.

قد يحدث أن يتشاجر الأبناء بسبب لعبة معينة، أو تحَكُّم الكبير بالصغير، أو فرض الذكور سلطتهم على الإناث، أو نظرًا لفرط الحركة، أو ربما بلا سبب، فقط لكون الصغير يشعر بالمَلَل؛ فيحدث جوًّا من الضوضاء ليستنفر الجميع حتى يشاركوه مشاعره؛ سواء وافقوه على تصرفه أم لم يوافقوه؛ لأنه -ونظرًا إلى صغر سنه، وقلة إدراكه- يُخَطط وينفذ دون تفكير، فلا ينظر إلا إلى ما يريد فعله، دون ما يترتب عليه، كما يحدث في كثير من الوقائع تجد أن الابن لا يريد من تصرفه ذلك إلا لَفْتَ نظر الوالدين حين يستشعر بُعدَهُم عنه، أو عدم اهتمامهم به.

ولذلك ينبغي التعامل مع شجار الأولاد بأن يترك لهم أحيانًا فرصة ليحلوا مشاكلهم بأنفسهم، فقط يوجَّهون ألَّا يُحدِثُوا ضَجيجًا، ولذلك لا ينبغي الاستعجال بالدخول في شجار الأبناء على الدوام؛ لأنه قد يُنهي الوالدُ الشجار لكنه يكون من باب العلاج المُؤَقَّت، فحالما يخرج من البيت عادوا إلى ما كانوا عليه، فيكون العلاج الذي توصل إليه من باب فرض السلطة لا أكثر، **لكن الأفضل ألَّا يتدخل الوالدان إلا في شجار قد يؤدي إلى الأذى.**

ثم قد يكون بعض الشجار مُصطَنعًا لاستدعاء انتباه الوالدين، فلا يُمكِّن الوالدُ أبناءه من هذا الصنيع بتدخله في كل شِجَار، فيستغلُّوا ذلك كنقطة ضعف كلما أرادوا أن يصطادوه، والأطفال أبرياء لكنهم أذكياء، وبالرغم من ذلك فعلى الوالد أن يكون أكثر حُنْكَةً، ولا يعتزل فضَّ الخلافات في كل واقعة، أو يترك التوجيه لأبنائه، فجميل أن يجلس مع الكبير خاليًا ويُوصيه برحمة الصغير، ويخلو بالصغير ويأمره باحترام الكبير، ولا ينافح عن تصرفات الكبير ويمتدحها، بل الأفضل أن يستجيب لمشاعر الصغير، ويقول أحيانًا: «أعرف أن فلانًا قد أخطأ وأنا سأُحدِّثه وأنبهه، ولكن لعلك أنت أيضًا تستفزه»، وما أشبه هذه العبَارات.

فالشعور بإحساس الصغير وما تعرض له من الاضطهاد الذي يراه، يجعله سهل الاستجابة إليك، فبَعضُهم يُحَدِّث الصغير بطريقة: «إنه أخوك الكبير يجب عليك احترامه»، دون تعليق على تصرُّفه الخاطئ، وهذا مما يجعل الصغيرَ أشد عنادًا، وأبعد عن الاستجابة.

وإذا حصل الشجار بين الأبناء، فاحذر أن تُسَارع إلى التدخل اليدوي، أو إيقاع العقوبة على أحدهم بأيِّ طريقة، كحرمانه من شيءٍ أو ما أشبه، دون فهم الواقعة، فهذا مما يجعله أشد حنقًا، وقد تقع العقوبة على البريء؛ فيكون أكثر ابتعادًا عن الاستجابة إلى ما تريد توجيهه إليه.

ولو فُرض وعمَدْتَ إلى تأديب أحدهم، فابتعد عن تعييره بالآخرين ومُقَارَنته بهم، حتى لو كان مَن تُقَارِنُه به هو أخوه، فإن هذا مما يزيده بُغضًا لمن قارنته به، ويدعوه إلى رفض جميع سلوكياته الحسنة، كما أن هذه الكلمات القاسية مما يزرع الإحباط في نفسه، **ويُوجد لدى الأطباء شعار جميلٌ يقول: «قبل كل شيء لا تسبب أذية»**.

ويحتاجُ الأهل إلى قاعدة مشابهة؛ لمساعدتهم على تذكُّر أنه أثناء عملية فرض الانضباط على أولادهم، عليهم ألَّا يُسَببوا لهم الأذية لصِحَّتهم العاطفية[1].

وعلى كُلِّ حالٍ، نعود إلى ما بدأناه أولًا: لا تحرص على

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص١٢٧).

الدخول في شجار الأولاد، إلا إذا خشيتَ وقوع الأذى، أو سيطرة الابن على البيت بحيث يُلغِي شخصيتك أو شخصية أمه، وما سوى ذلك، فلا تنظر إلى ما يحدث من الشجار بين الأبناء أنه ضارٌّ دائمًا، بل فيه من الإيجابيات أنه يخرج شعور الكبت الذي يكون داخل الأبناء، كما أنه وسيلة لمعرفة شخصية الابن وتحليل سلوكه، فيتبيَّن لك المراوغ والماكر، وضعيف الإدراك والذكي، والذي لا يستطيع أن يُخَلِّص نفسه من موقف، وأنت من خلال تحليلك لذلك، ومراقبتك غير الملاصقة، ستعالج هذه السلوكيات فتُنمِّي الحَسَن منها، وتَنهَى عن السيِّئ.

كما أنه ممَّا لا يفُوتُ التَّنبيه عليه: أن سلوك الوالدَيْنِ له دَورٌ في تصحيح سُلوك الأبناء؛ لأن الأبناء قد يتربَّونَ بالقُدوَة العملية أكثر من الإرشاد النَّظَري، ولذلك لِيَحْرِصِ الوالدان أن يكونا أكثر هدوءًا في البيت، فالأبناء يستمدون هذا السلوك منهم، كما أنه يجب على الوالد أن يكون له وجود في البيت، **فإنه مما يُقَرره علماءُ نفس الطفل: أن البيتَ الذي لا يجلس فيه الوالدُ فترة كافية، يكونُ الأبناء فيه أكثَرَ عبثًا وإحدَاثًا للمَشَاكل.**

النزهة

من الضَّروري للوالدِ أن يُغَيِّر الروتين المعتاد على أولاده، وذلك من خلال اصطحابهم في رحلة إلى مكان يستمتعون فيه، ويفرغون فيه شحنات الرتابة المتكررة، لكن الواجب عليه إذا قام بهذا العمل الجميل أن يتذكر أنه وسيلة لإسعاد الأبناء، فلابدَّ أن يتمتع بالصبر، وغض النظر عن الأمور التي من شأنها أن تُكدِّر الأبناء، **وباختصار**: «**لا يكون دقيقًا**»، بل ينبغي له أن يتغافل عن كثير من الأمور، فالنزهة للتَّرويح وليست كالبيت، فلا تُفرض عليها القيود إلا ما يكون من باب الخَلَل السلوكي أو الأخلاقي، أو أن يلحق أذى بالآخرين.

فلا تجعل النزهة مجالًا للتوجيه وإعطاء المواعظ فيما يتسع له المجال أن يُعطى لاحقًا، ولا تُجعل ساحةً للتهديدات والتحذيرات أو المَنِّ، حتى تنفر نفوس الأبناء منها، ولا يكن

شعارك أثناء الرحلة دائمًا: «لا تفعل، لا تقوم، لا تركض»، اجعلها مجالًا رحبًا للانطلاق، وراقب بعينيك مخافة الأذى عليهم، وامنعهم مما يلحق بهم الأذى؛ كلعبة مؤذية أو مخيفة لمثل أعمارهم.

ولا نعني بقولنا: لا تمنعهم، أن يُفتَح لهم المجال على كل شيء، **لكن نَقصد الاعتدال، وألَّا يُمنَعُوا مما فيه سرور أنفسهم.**

وقد يُحدِث الأبناء -ولابُدَّ - أثناء هذه الرحلات شيئًا من الضجيج، فلا يجعلك ذلك مستنفرًا مضطرب الشعور، بل انظر إليه أنه سلوك عادي، سواء كان هذا الضجيج والشجار بالسيارة حيث يتشاجرون على المقاعد بالرغم من قلة عددهم وكبر السيارة، ومن يريد أن يجلس عند الشباك من عدمه، فكن هادئًا، واسْعَ إلى حل المشكلة ببديل لا يحزنهم، واحذر الأسلوب الخاطئ الذي يفعله بعض الآباء والأمهات من التهديد بالعودة إلى المنزل، أو التذمر «أنتم لا تستحقون أن نأخذكم إلى نزهة»، وما أشبه هذه العبارات الجارحة، تذكر أنت أخرجتهم ليَفرَحُوا، لا لتزيدهم همًّا وألمًا، ثم إن الذي قد يُحدِث الشجار شخص واحد، فتعاملك بالمنع أو الهجوم على البقية، سينظرون

إليه أنه من باب الظلم أو عدم الإنصاف.

وقد رأيتُ أن إطالة الصمت في مثل هذه الأحوال، أو قولك فقط وبهدوء: «الصوت يا أولاد»، كافٍ لمُعَالجة هذه السلبيات إلى حدٍّ بعيد، ويُغني عن إلقاء المواعظ الطويلة في رحلة يسيرة لا تتعدى سويعات.

قد يصعد الأبناء السيارة، وحين تسألهم: أين تريدون أن نذهب؟، يختار قسم منهم مكانًا، ويختار آخرون مكانًا مغايرًا، فينشب الخلاف، فعليك أن تحل هذه المشكلة بالهدوء أولًا، ولا تغضب ولا تستنفر، فلعلك تقول: «أنا بودي أن نذهب لهذا المكان إذا لم يكن لديكم مانع»، فهذا كطلبِ تحقيقِ رغبةٍ ربما قد اتُّفِق عليها من قبل، لكن نوايا الأطفال تتغير، أو تقول: «نزور هذا المكان، وإذا كان هناك متَّسعٌ من الوقت ذهبنا للمكان الآخر»، أو: «ما رأيكم أن نذهب اليوم إلى هذا المكان، والنزهة القادمة إلى المكان الآخر؟»، ولا تتعب نفسك لتقنع الطفل أنه بالأمس قد اختار هذا المكان فليس من حقه اليوم أن يُغيِّر.

لا مانع أن تُخبر طفلك أنك ستذهب به إلى مكان كذا،

بشرط أن تكون عازمًا على إنفاذ الوعد، ولكن لا تعد بوقت محدد ويوم محدد، فإنك إن لم تَفِ بوعدك في الوقت المحدد، فسيظنك كاذبًا، ولا يثق بك مرة أخرى.

واعلم أن الأطفال أحيانًا يختارون أماكن ليس من باب محبتها أو معرفتها، ولكنهم سمعوا الاسم من الآخرين، فبالهدوء يَسهُل التعامل معهم، لكن لا يجب أن نكذب عليهم.

وقد يكون بعض الأبناء يريد مكانًا مناسبًا، وأخوه على خلاف ذلك، فقل له: «لا تقل ذلك أمام فلان، لأنه سيرى ذلك من باب أنني آخذ برأيك فيعاند، واجعل المبادرة تكون مني»، ثم اطرح أنت الخيار، أننا سنذهب إلى مكان كذا، فتقبُّل الابن من الأب أكثر من الأخ؛ لأنه -ومن باب الشجار- قد يختار الابن مكانًا لا لقناعته به، بقدر ما يريد أن يكيد أخاه، بل وأحيانًا قد تقول للابن الذي لا يرغب بالمكان الذي تراه مناسبًا: أنا بودي أن نذهب لمكان كذا، فما رأيك يا فلان؟، فترك شيءٍ له من حرية الاختيار يجعله منقادًا لك إلى حد بعيد، وحتى لو لم يقتنع به مباشرة سيكون التفاوض معه هادئًا.

لكن لا تَنسَ القاعدة: النزهةُ مكان لغَرْس الفرحة في قلوب الأبناء بوقتٍ يسير، فلا تجعَلها سببًا لمشاعر الإحباط والهجوم، فلا تُؤتي ثمارها على النَّحو الذي كنت تأمُلُه وتَرجُوه.

دور الأم في صداقة الابن لأبيه

يحتاج الأبناء إلى الآباء، ولا يكون ذلك إلا بتقوية العلاقة بينهم وبين آبائهم، **وحتى يصل الأب إلى هذه الدرجة مع أبنائه**: لابدَّ أن يُعرَف أن القائد إليها هو أن يُحِبوه، ولعل مما تجدر الإشارة إليه معرفة أن حب الأب لابنه شيءٌ فطري، أما حب الابن لوالده فيحتاج إلى اكتساب، **ونعني بالاكتساب**: أن يبذل الأسباب التي تؤدي إلى محبته، من الإحسان إلى أبنائه، ورحمتهم، ومصاحبتهم، وحمايتهم، وخفض الجناح لهم، مع ضرورة التنبيه إلى أنَّ ذلك لا يعني أن يستجدي الأب العاطفة من أبنائه، أو ينكسر إذا لم يُحِبُّوه، فهو مطالَب ببذل الأسباب التي تقودهم إلى محبته، أما تحقيق المحبة فهذا أمر لا يملكه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فالقلوب بين يديه.

وللأم دور عظيم في محبة الأولاد لأبيهم، فعبارات الثناء من قبل الوالدة، والحديث مع أبنائها حول دور الأب في حياة

أبنائه، وانكسارهم بدونه، وبَذْله من أجلهم، وتغاضيها عن أخطاء الوالد، وعدم طرقها أمام الأبناء، ومناصحته سرًّا فيها من أجل ألَّا تُكسَر هيبته، وتبقى مكانته عند أبنائه، كل هذه الأسباب مما يؤدي إلى تعلق الأبناء بالآباء ومحبتهم.

ومع صلاح بعض الأمهات ونجاحها، إلا أنها تفعل أمرًا خاطئًا لا ينتبه إلى خطورته إلا مع مرور الأيام، وهو أنه وأثناء تربية الوالد لابنه بالمنع أو التأديب ربما لا تتكلم وتنتقد، لكن يشعر الأبناء من ملامح وجهها، أو حزنها الذي يؤثِّر على نفسيتها رغم صمتها، يشعرون أنها رافضة لتصرف الأب، وربما هذا يتكرَّر منها، والأبناء يراقبون بذكاء، وهذا وحده كفيلٌ بزرع الحَوَاجز بين الابن ووالده.

يجب أن تعلم الأم أن لها دورًا عظيمًا في تقوية العلاقات، وفي المقابل بناء السدود النفسية، وهذا التصرف الصادر منها بداية النُّفرة بين الابن والأب، قد لا يؤدي إلى أن يكون ابنًا عاقًّا أو سيئًا، لكن في الوقت ذاته يُفَوِّت على الوالد لذة الاستمتاع بابن له سَعَى إلى صداقته بكل وسيلة، لكن نظرًا لتصرف الأم الخاطئ، ذهب كل هذا السعي أدراج الرياح.

خلاف الوالدين

من الطبيعي حُدوث الخلافات في حياة الأُسَر، على اختلاف درجات هذه الخلافات، كثيرة أو قليلة، لكن ليس من الطبيعي أن تكون هذه الخلافات حالة لا يمكن احتواؤها والتحكم بها حتى تظهر أمام الأبناء، فيُصِيبهم ذلك بالتوتر والقلق، لاستشعارهم أن منزلهم مُهَدَّد، وقد يؤدي بهم إلى الشعور بالذنب بسبب دورهم الفعلي أو المتخيَّل في العراك العائلي.

وعليه؛ فالواجب على الوالِدَين: أن يتدبروا خلافاتهم بالنقاش الهادئ على انفراد وسرية، أو يؤجلوها إلى وقت آخر، فليس من الصواب أن يرى الأطفال والديهم يهاجم بعضُهُم بعضًا[1].

مع الأسف الشديد أن البعض لا يطيب له نقاش الطرف

(١) انظر: «التربية المثالية للأبناء» (ص١٨٥-١٨٦).

الثاني فيما يراه قد أخطأ به إلا أمام الأبناء، وكأنه يستنصر بهم، أو ليثبت لهم أنه الأكثر حبًّا لهم، والمنافح عن حقوقهم، وفي هذا من المَفَاسد الشيء الكثير، فزيادة على قلق الأبناء المستمر بسبب توقع حدوث المشكلة في أي لحظة، هناك جانب خطير لا يلتفت إليه الوالدان، وهو أن الخلاف إما أن يكون فيه جانب أقوى يكسر شخصية الآخر، فيعود هذا الطرف غير قادر على فرض هيبته على الأبناء بسبب ظهوره بموقف ضعيف الشخصية، وإما أن تتساوى الكفتان فيجترئ الأبناء على الوالدين من خلال الرفض القولي أو العملي لما يُؤمَرون به من قِبَلِهما.

من زاوية أخرى، يجب تحذير الأم من القيام بمظهر المنافح عن حقوق الأبناء، فتهاجم زوجها أمام أبنائه، فالأبناء أكثر هيبة للآباء من الأمهات، وحينما تُهاجم الأمُّ الأبَ يتعاطف معها الأبناء، ليس لكونها مظلومة أو مسلوبة الحقوق، لكن لأنَّ الأبناء يميلون إلى من يعطيهم المجال الأرحب في التصرفات، حتى الخاطئة منها، فإذا تحقق لهم ذلك تصرفوا بإدارة حياتهم وفق ما يرونه مناسبًا لهم، ولم يُذعنوا إلى توجيهات

الوالدة التي أوصلتهم إلى ما يريدون من الأهداف، وليس شرطًا أن يكون الأبناء قد خططوا لذلك منذ البداية، لكن هذا ما تَئُول إليه الأمور غالبًا.

من الواقع المُسَلَّم: أنه لابدَّ من ظهور الخلافات الزوجية على السطح، وأن يعلم الأبناء طرفًا منها؛ لأن الخطأ من طباع البشر، ومع ذلك لابدَّ من معالجة الخلاف من خلال النظر في المصلحة المترتبة على علاجه، والآثار السلبية اللاحقة به فيما لو أُهمل من غير علاج، **وأصل العلاج**: السرِّيَّة والبُعد عن مرأى الأبناء وسَمْعِهم، فالهدف أن يبقى هذا المنزل واحة هادئة يعيش فيها الأبناء والوالدان عيشة هَانِئَة، لا ساحة مُبَارزة لابدَّ فيها من غالب دُونَ النظر إلى ما يَتَرتب على ذلك الفعل من أضرار.

الخصومات بين الوالدين

يجب أن يبقى الطفل سليم المشاعر، بعيدًا عن التأثيرات السلبية التي ليس لها تعلق في شخصه أو طريقة تربيته، ومن ذلك إبعاده عن جو الخصام الحادث بين الوالدين، ولا أعني بذلك عدم علمه، فإنه قد يعلم إما من خلال ظهور بعض هذه المشكلات على السطح، أو من خلال إحساسه بوقوع مشكلة بين والديه، **لكن أعني بذلك: ألَّا نعمل على حَشْرِ الابن في مشاكل الوالدين**، فبعض الأمهات تستخدم الأبناء كوسيلةِ ضغطٍ على الأب إذا أخطأ في حقها أو توهمت ذلك، فتهمل تربيتهم، وتترك خدمتهم، كأنها بذلك تريد أن تُرسِلَ رسالة للأب توضح أهميتها في المنزل وحاجة الأبناء إليها، وقد تتكلم على الأب بأسلوب غير جيد، أو ألفاظ قبيحة، وهذا مما يُفسدُ أخلاق الأبناء بشحنهم نفسيًّا على والدهم، قد

يُؤدي إلى بُغْضِهِ، وجعله في زاوية محصورة، تقوم علاقته مع أولاده على الظاهر فقط، مع رفض مبادئه باطنيًّا فلا يُطبق منها شيء، وكفى بذلك فسادًا؛ لأن سُلطَةَ الأب في التربية أقوى من سلطة الأم.

وقد يقوم بعض الآباء بإرسال رسائل إلى زوجته من خلال أبنائه: «قولوا لأمكم كذا»، و«لماذا تفعل كذا»، و«أنا سأفعل، سأتزوج»، وهذه الرسائل تُصِيبُ الأبناء بالإحباط، حيث إننا نقتحم جوهم الهادئ بضجيج لا علاقة لهم به، ونضطرهم أن يكونوا مشاركين شعوريًّا في مشاكل لا علاقة لهم بها.

وتخَيَّل شعورك حين يُدخِلُك أناسٌ في موضوع أو هواية لا تحبها، فكيف إذا كان جوًّا مشحونًا بالمشاكل والنزاعات وتُسَاق إليه مجبورًا؟!

لذلك؛ يجب أن يبقى الأبناء بعيدين عن مشاكل الوالدين، ونُبقي حياتهم طبيعية مستقرة لها خصوصيتها، وتُحل المُشكلات بدون إقحامهم فيها، ويبقى كلٌّ من الوالدين قائمًا بواجباته التربوية، ولا يعمد إلى تصفية حساباته مع الطرف الآخر من خلال أولاده.

فإقحامُ الأبناء بمشاكل الآباء يؤدي إلى الملل، ثم ردود الفعل الباردة تجاه المشكلات، ثم بُغض البيت حيث يتوقعون في أيِّ لحظةٍ أن تنفجر فيه مشكلة، ثم الانزواء إلى أنفسهم خوف الاصطدام بأحد الوالدين الذي يطالبهم بنصرته على الطرف الآخر، وكأنها مسألة فيصلية لابدَّ أن يتخذ الابن فيها قرارًا إما معي أو عليَّ.

اترك لابنك عالمه الخاص، لا تقحمه في هذا الجو المكتئب، فضلًا أن تطالبه بالانتصار لك على الطرف الآخر، بل علِّمْه الحيادية حتى يبقى قلبُه سليمًا، وبارًّا بالطرف الآخر الذي أُمِر بِبِرِّه، فإذا ربَّيْتَهُ على ذلك فثِقْ أنه في يومٍ من الأيام سينتصر لك، ويعمل على إصلاح الخَلَل من تِلقَاء نفسه، وقيامُه بالموقف من تلقاء نفسه دَليلٌ على قناعاته وكمال عقله، ويكون أكثر أثرًا على الطرف الآخر مما لو شَحنتَهُ أنت بأفكارك؛ لأنه في هذه الحال لا يعدو أن يكون رسولًا إليك، وصورة مكررة منك، وهذا ما لا يتقبله الطرف الآخر.

وعلى كل حال، فالمُطَالَب به الوالدان: ترك الابن في عالمه

الهادئ؛ حتى لا يتغير قلبُه ويقسو ويتعلم اللامبالاة؛ لأن ردة الفعل المترتبة على قسوة القلوب وغلظتها، قد تتحول إلى طبع عام يتعامل من خلاله الابن مع جميع الصور التي تمرُّ به، دون الاقتصار على حال معينة أو شخص بعينه.

التربية على الصدق

من الواجب تعويد الأبناء على الصدق وغرسه في نفوسهم، والتنفير من الكَذب، ولكي يكون العمل مُثمِرًا لابدَّ أن يكون الوالد قُدوة عملية لأبنائه ولا يكتفي بالتنظير، فإن الطفل شخص ذكي ولَمَّاح، ولا يحسن أن يرى من والديه نقيض ما يأمرونه به، وينبغي أن نعرف منزلة الصدق ومزاياه، ويستقر ذلك في نفوسنا، حتى إذا جعلناه من وظائفنا التي نعمل بها ونحاول غرسها في الآخرين صرنا نتعاطى ذلك بكل ثقة.

فالصدقُ أمر يُحبه الله، وهو دليل على قوة الشخصية، وثقة المرء بنفسه ومعرفته قَدرَ نفسه؛ لأنه لا يكذب المرء إلا من مهانته وعجزه عن أن يكون شخصًا متزنًا بتصرفاته، واثقًا من أطروحاته، فجميل أن نبين لأبنائنا منزلة الصدق، وأنه كان من مفاخر العرب حتى قبل الإسلام، ومن ذلك قول

أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وقد كان مُشرِكًا-: «كنت امرأً سيِّدًا أتكرم عن الكذب»[1].

فلما جاء الإسلام أمر بهذا الخلق؛ لأنه مفتاحٌ للقلوب، وسبيل إلى أن يثق الناس بالصادق، لما يعرفونه عنه من النصح الظاهر والباطن.

وإذا رَبَّى المُرَبي من تحت يده على الصدق، ارتاحت نفسه، وسهل عليه التعامل معهم؛ لأنَّ الوضوح في العلاقات الإنسانية يقود إلى الراحة، فتعرف من أين تنطلق، وإلى أين تنتهي، وقِسْ على نفسك في مثال بسيط: لو وَاعدتَ عاملًا ليُصلِحَ شيئًا في بيتك في ساعة معينة، وتأخر عليك ساعة أو ساعتين أو أكثر، ما الذي يحدث لك؟! سيعلوك الغضب وتستنفر، وتكرر الاتصَال، وربما أشد من ذلك؛ لأنك قد ارتبطت بمواعيد أخرى، أو تكره الالتزام بوقت مفتوح يفسد عليك نظام يومك، وتأخذ فكرة عن هذا العامل أنه سَيِّئ، أو غير مُبالٍ!

(١) «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، لابن حجر العسقلاني (١/ ٣٥).

فهذا مثال صغير لحاجتنا إلى الصدق في معاملاتنا مع الآخرين، فكيف إذا كنا نفتقده في بيوتنا، فتُفقد على إِثْره الثقة بين أفراد الأسرة، ويكون التعامل بعد ذلك من خلال الكَر والفَر، والخديعة والمكر، لا شك أنه واقع بئيس.

ولذلك، اغْرِس الصدق من خلال كلامك ومَدحِك لهذا الخُلُق، وحثِّ أبنائك عليه، وفي المُقَابل اتَّصِف به من الناحية العملية، ونَفِّرهم من الكذبِ قوليًّا وعمليًّا.

في تصوري أنه حتى الوالد الكذاب لا يتمنى أن يكون أبناؤه كاذبين؛ لأنه يرى معاناة الناس معه لكونه كذَّابًا، ونفرتهم منه، وصعوبة تعاملهم معه، فلا يريد أن يكرر نفس الواقع من ابنه، ويعيش المعاناة التي ألحقها بالآخرين.

وإذا كان هذا مسلَّمًا، فلابدَّ إذن من تجنب الكذب في تصرفاتنا؛ لأن بعض الآباء والأمهات يغرس ذلك في نفوس أبنائه بقصد أو بغير قصد، فيفسد حياتهم، ويصعب عليه تربيتهم بعد ذلك؛ لأن الناس لا يقبلون إلا من قُدوَة.

قد لا يكون الوالد كذابًا حين يواعد طفله الصغير بنزهة

أو رحلة أو شيءٍ ما، أيًّا كان ذلك، لكنه لا يبالي بتنفيذ ذلك، فيرسخ عند الابن أن والده كذاب، لأن الطفل ليس في سن التمييز وقبول الاعتذارات في بعض مراحل حياته، ولذلك لا تواعد ابنك بشيء إلا إذا كنتَ عالمًا أنك ستحققه، حتى لا يواجهك الابن بقوله: «أنت تكذب عليَّ»، ومهما حاولت أن تبرر لن يستوعب الطفل محدود الفكر أعذارك.

أحدُ المُربِّين يقول: عودت ابني صاحب الثلاث سنوات على الصدق، فكنت إذا واعدته وإخوانه برحلة أو نزهة أو شيءٍ ما، التزمت بذلك حتى لو ألغيت مواعيدي الخاصة، وذات مرة طلب مني ابني شيئًا، فقلت: إن شاء الله؛ فقال: «أنت تكذب عليَّ»، فقلت: هل سبق أن كذبت عليك؟ ففكر قليلًا، فقال: لا، فعلمت أن الغرس الذي غرسته فيه قد ظهرت ثَمَرَاتُه.

لا تستغرب حين تعرف أن الأبناء يميزون بين كلمات الوالدين الدالَّة على الموافقة أو التردد، أحد الوالدين يقول: كنت إذا طلبت مني ابنتي الصغيرة ذات الأربع سنوات شيئًا أقول لها: «أبشري»، ثم أحضره لها، وذات مرة طلبت مني

أمرًا، وكنت مُتَرددًا في إحضاره، فقلت: «أنظر في الأمر»، فقالت: لا، قل: «أبشري»، قلت: سأحاول، قالت: «لا، قل: أبشري»، فعلمتُ مقدار ذكاء الأطفال؛ حتى إنهم يميزون بين الكلمات والعبارات.

ومثل هذه الوقائع والتعاملات النفسية مع الأطفال تجعلنا أكثر دقة وأشد حرصًا.

وبعض الوالدين -مع الأسف- يغرس الكذب في أبنائه متعمدًا، قد سَوَّل إليه الشيطان أن الحياة تتطلب ذلك، وأنه لن يعيش إلا بهذا الأسلوب، والناس لابد أن يُتعامل معهم هكذا حتى يقبلوه، مع أن الواقع يكذِّب ذلك، فالناس إذا التبست عليهم الأمور وغشيتها الظلمة، واحتاجوا إلى مشورة أو موقف مصيري، لا يلجأون إلا للصادقين، فكم فات على بعض الناس وظيفة، أو خسر دراسة، أو فقد مزيَّة معينة، أو تزوج أو تزوجت بمن لا يصلح له أو لها، والسبب في كل ذلك الكذاب!

بعض الوالدين يتعامل بالنفاق العملي، فيبَشُّ في وجوه أناس، وإذا ذهبوا سبَّهم أمام أولاده الصغار، فكيف سيميزون الأمور بعد ذلك؟، وأين الخطأ وأين الصواب؟

وبعضهم يأمر أبناءه بالكذب: إذا سأل عني أحدٌ قل: إني غير موجود، مسافر، وغير ذلك من الأعذار، وهو موجود، إذا سألك أحد عن قيمة هذا الشيء قل: بكذا، وهي قيمة خلاف الواقع، والأمثلة في ذلك لا تُعَد ولا تحصى، لكنها تُدمِّر شخصية الأبناء، وتجعلهم يسيِّرون شخصياتهم على حب آراء الناس وأهوائهم، فلا يجعلون انطلاقهم نحو الحياة بشخصيات واثقة متزنة، بل تابعة لما يريده الناس، وكفى بذلك اضطرابًا.

عوِّد ابنك على أن يكون صادقًا دائمًا، ومع ذلك لا يلزم أن يكون صريحًا في كل شيء، فيواجه الناس بما يكرهون، أو يجيب على سؤالِ كلِّ فضولي يحاول الدخول إلى حياته الخاصة، فالصدق لا يعني أن يكون المرء صلفًا أو وقحًا، كما لا يعني أن يكون كتابًا مفتوحًا أمام الجميع، ولذا لابد من تعليمه الردود العامة، ولباقة اللسان، والاستحضار الذهني لطريقة الرد؛ لأننا لو طبقنا الوسط في أمورنا لاتضحت الرؤية في كثير من الأمور التي نقررها، لكن المشكلة أن البعض لابد أن يكون مُنحَازًا إلى أحد الجانبين، جميل أن نتعامل بطريقة:

«كن صادقًا فلا تكذب، لكن لا تكن صريحًا في كل شيء»؛ لأن بعض الأمور خصوصيات لا يحق لأحد أن يقتحمها أو يخوض فيها، فلابد من تمييز ذلك وغرسه في نفوس الأبناء.

لقد حذرت الشريعة من الكذب في أصغر الأمور بما يترتب عليه بعد ذلك، قال عبد الله بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دعتني أمي يومًا، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاعد في بيتنا، فقالت: ها تعال أعطيك، فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما أردت أن تُعطِيه؟**» قالت: تمرًا، فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما إنك لو لم تعطه شيئًا كتبت عليك كذبة**»[1].

فهذه إشارة إلى أمر يَعُدُّه بعض الناس من الأمور اليسيرة، فحذر منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا التحذير حيث ألحقه بالكذب.

مشكلةُ بعض الناس ظنه بأن الطفل لا يُمَيز، أو أنه سينسى، وغاب عنه أن الطفل أشد حفظًا وأوقد ذهنًا، وربما سيأخذ عن والديه الانطباع بأنهم لن يصدقوا معه، وإذ به كلما كبر -وتكررت

(١) رواه أبو داود (٤٩٩١)، وهو حديث حسن، انظر: «صحيح الترغيب» للألباني (٢٩٤٣).

هذه المسألة- إذ به يفقد الثقة، ويكون له أسرارٌ قد تكون في غاية الأهمية، لكنه يُخفِيهَا عن والده نظرًا لضعف الثقة بينهما.

تختلف الأسباب التي تدفع بالأبناء نحو الكذب، وعلى الوالد تلمُّس ذلك من أجل أن يعالجه، فقد يكون الوالد التزم بالصدق قولًا وعملًا ونشَّأ أبناءه على ذلك، ومع ذلك يحصل منهم أن يكذبوا خوف شدة العقاب، فقد يكون الابن قد أتلف شيئًا أو اعتدى على أحد إخوانه، أو غير ذلك مما يحصل من الأطفال عادة، فيكذب للخلاص من العقاب العنيف الذي يتوقع أن يُلحِقَه به والده، وعلاج ذلك لابد أن يكون قد قدَّمه الوالد واتصف به قبل وقوع هذه الأحداث، وذلك بتعامله مع فوضى الابن بأريحية، وعدم تضخيم الأمور، وأن يكون معروفًا عنه أنه لا يعاقب إلا على جُرْم كبير، ويتجنب الوالد أن يسأل الابن سؤالًا مباشرًا: «أنت فعلت هذا؟»، وليكن استعماله للفظ الغائب أفضل كقوله: «من فعل هذا يستحق العقاب»، المهم أن يستعمل لفظًا يُشْعِر الابن أنه أخطأ، وأن والده قد أعطاه مساحة كبيرة من الأمان.

طفلة صغيرة اعتادت من والدها الصدق معها، والحلم عليها فلا يعاقبها على شيء يسير عقوبة قاسية، كانت قليلة الفوضى، فإذا أفسدت شيئًا جاءت إليه فقالت: «بابا فعلت كذا»، فيرد عليها: «إذن انتبهي، لا تفعليه مرة أخرى»، ولا يعاقبها مكافأة على صِدقِهَا.

لا نقف لأخطاء الأبناء على المَحَك، فبتغافلنا عن كثير من الأخطاء التي لا تضر، لن يشعروا بأنهم بحاجة إلى الكذب.

وعلى الوالد أن يكون دقيقًا في أقواله وأفعاله، فالأبناء ناقدون بحدة، وعليه أن يكثر من ذم الكذب، ودوره في كسر شخصية الإنسان وضعفه عن تحمل مسؤولياته، **وقد يمكننا القول: نشِّئ ابنك على الصدق في أول مراحل تربيته، ثم هو بعد ذلك سيُميز ما يقال وما لا يقال، ما يكون فيه صريحًا مما لا يكون فيه واضحًا، وإنما تُؤخَذ هذه الأمور بالتجارب، المهم أن يكون صادقًا حتى يحترم نفسه التي يبحث عن رفعتها وتميزها.**

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام: أنه قد يستعمل الابن في سنه المتقدمة- كسن الرابعة مثلًا- الكذب الخيالي،

وهذا قد لا يصنفه علماء نفس الطفل ككذب الكبير أو المميز، وذلك أن الصغير يجنح في خياله كثيرًا، فسرعان ما ينسج لك قصة مرت في ذهنه، فيرويها لك وكأنها واقع، فلا ينبغي التعامل معه في هذا المقام كتعاملنا مع الكبير الذي يتعمد الكذب، فيمكن سماعه ثم توجيهه بحكمة؛ لأنه لو أنكرنا عليه كإنكارنا على الكبير لن يستوعب ذلك، فقد ينسج لك حكاية من وحي الخيال لكونه يرغب بشيء، أو يخاف من شيء، فالوالد الحكيم الذي ينتبه إلى ذلك، فيعيش شعوره، ليضعه على طريق الأمان العاطفي، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لا ينبغي تكذيب الطفل في كل ما يقوله، فربما يشتكي إليك من شيء كإساءة خادمة، أو تعدي سائق، أو زميل روضة، فلا ينبغي وتحت مسمى الكذب الخيالي أن نرد كل ما يقوله، بل الواجب التثبت بطريقة أو أخرى، لنعلم حقيقة دعواه حتى نوفر له الحماية.

وعمومًا، من المجدي أن نتأمل في الإشارات التي يذكرها الابن من خلال نسجه لقصةٍ ما، فلعله يريد إيصال رسالة إلينا، لم يجد لإيصالها سبيلًا إلا ذلك.

خجل الأبناء

إذا كان الحياءُ ممدوحًا محمودًا؛ لأنه يؤدي إلى اجتناب القبائح، فإنَّ الخجل مذموم، وحالة مَرَضِيَّة ينبغي التعامل معها كسلوك خاطئٍ يحتاج إلى تصويب وتقويم.

يجب أن يُنَشَّأ الأبناء على الحياء؛ لأنه خلق ممدوح؛ يرفع من اتصف به ويقوده إلى السلوك المحبب من خلال تعامله مع الآخرين؛ ولذلك فقد مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحياء، وجعله من علامات الإيمان فقال: «**الحياء شعبة من الإيمان**»[1].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[2].

والناس يُحِبُّون الشخص الحَيِي، ويرفضون الوقح الذي يواجههم بما يكرهون قولًا وعملًا، **أَمَّا الخَجل فهو سلوك يعبِّر**

(١) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٥٧).

(٢) رواه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٦٠).

عن الانكسار، ويدُل علي ضعف ثقة الإنسان بنفسه، ومن ثَمَّ عَجزه عن اتخاذِ ردِّ فعلٍ مناسبٍ تجاه ما يمر به من الأحداث.

ويجب الاعتقاد بأن تكوُّن الخجل، كأية سمة من السمات الخلقية، يأتي بتأثير جملة ظروف داخلية وعوامل خارجية محددة، وبلا شك، فالخجل ليس صفة تأتي مع الطفل بالولادة لتفرض عليه نمطًا محددًا من السلوك، بالرغم من وجود بعض العوامل الطبيعية الوراثية المساعدة على نموِّه، لكن العوامل الأكثر تأثيرًا هي الظروف الحياتية التي تنمو ضمنها شخصية الطفل، وقبل كل شيء خصائص تربية الطفل داخل الأسرة، كأن يقوم الطفل الخجول مثلًا بفعل شيءٍ ما بغير الصورة المطلوبة، فيقوم الأهل بتأنيبه أو السخرية منه، أو التحدث عن فعلته أمام الغرباء، مما يثير في نفسه مشاعر مؤلمة، فإذا تكرر هذا الأمر يُصاب الطفل بالخوف والتحسس، ويعمل هذا الخوف الدائم على تقييد وعرقلة جميع أفعال الطفل وزعزعة ثقته بنفسه، وبالتالي ظهور الصورة المرَضية للخجل المفرط لديه، فالطفل هنا ينتقل إلى حالة تشبه الفزع، إلا أنَّ الفزع هنا من نوع خاص، إذ يتولد عند الطفل ليس على

أساس الشعور بالخطر المحدد من قِبل بعض الناس أو الأشياء المحيطة به، وإنما يسبب عدم الثقة بالنفس وقلة الاعتداد بالذات، ولذلك تجده يعيش دومًا في حالة متوترة؛ لأنه يخشى في كل خطوة يقوم فيها فضح نفسه، والكشف عن عدم كفاءته، ويصبح متصفًا بحساسيته الفائقة، فأقل ملاحظة يبديها له الأهل تُثيرُ في نفسه أشدَّ القلق والتأثر[1].

وتختلف درجة الخجل من طفل لآخر، لكنه في العموم يبقى سلوكًا لابد أن تكتشف أسبابه ليُعالج؛ لأن هذا الطفل سيعيش هذه الحياة العامرة بالأحداث، ويلتقي بوجوه متنوعة ومختلفة، كل واحد منها يحتاج إلى أسلوب مغاير في التعامل، فإذا لم يتقن فنَّ التعامل مع مَن حولَه على اختلاف طباعهم، أدى ذلك إلى إرهاقه نفسيًّا وفكريًّا.

وقد يكون الأهل أحد أسباب زرع هذا السلوك في أبنائهم، حين يفرطون في حمايتهم والقيام عنهم بكل ما يريدون، بحيث لا يعتمد الابن على نفسه بشيء، أو يكون الوالد دائم

(١) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص٩٧-٩٩).

الملاصقة لابنه، فلا يُجلسه إلا بجانبه في المجالس العامة والخاصة، ولا يمشي إلا وقد أمسك بيده، حتى في السن التي يستطيع أن يمشي بنفسه دون اعتماد على الآخرين.

وقد كان آباؤنا بالرغم من عدم دراستهم لقواعد التربية التي وضعها المختصون بعلم النفس التربوي، يتصرفون حيال ذلك بكل ثقة ودقة، فكان الأب إذا جلس وجاء ابنه الصغير ليجلس بجانبه، نهاه وقال: اجلس هناك -يشير إلى مكان آخر في المجلس-، فهذه اللمحة من هؤلاء الآباء العظام، تُعطي الابن أول لمحات الاستقلالية، وأنه سيوجه إليه الكلام من قِبَل الكبار أو الصغار، وهنا سينكسر لديه حاجز الصمت والخوف النسبي، ولو كان مع بعض الإخفاقات في البداية.

ولذا من الضروري أن يصحب الوالد ابنه معه إلى المناسبات الاجتماعية، ويعزز فيه الثقة أنه قادر على مواجهة الناس، ويوجهه إلى السلوك الذي ينبغي له أن يعمل به مع من يلتقي بهم، وإذا حصل منه شيء من الأخطاء، فلا يكثر عليه اللوم أو التوبيخ بشكل منفِّر، بل وقد لا يكون من المستحسن تنبيهه على ما فعله من الأخطاء بشكل مباشر وفوري؛ لأنها خطوات لزرع الثقة.

ولذا من الأخطاء التي يفعلها بعض المربين، عدم تعويد أبنائهم على مخالطة الآخرين، بل وقد يبالغون بالحرص بداعي الخوف على أخلاق الأبناء وسلوكياتهم، فيكثرون النقد لسلوكيات الأطفال الذين يعيشون حول الابن من أبناء الأقارب والجيران، **ويُكثِرُون ألفاظ التحذير**: «لا تمش مع فلان فإنه يفعل كذا وكذا، أولاد الحارة سيئون يفعلون كذا وكذا»، حتى ينشأ الابن مُنطَويًا على نفسه، يخاف من مواجهة الآخرين لما طُبِع في ذهنه من الصورة السيئة التي رسمها الوالدان في مخيلته، وهذا خطأ.

دَعْهُ يعيش طبيعيًّا، وتذكر نفسك دائمًا كيف كنت تعيش وتخالط حتى تعلمتَ كيف تتصرف مع الآخرين، ودَعْ له مسافة من الانطلاق، لكن مع المراقبة حتى لا يسلك مسلكًا خاطئًا.

لا يحسن أن يبقى الابن معتمدًا على والديه بكل شيء، حتى ينشأ طفلًا ضعيفًا ينكسر عند أول تجربة، فالمخالطة تكسر حاجز الخجل، وتعطي الجرأة ليتصرف تجاه ما يمر به من متغيرات.

ومِن الأسباب الدَّاعية إلى الخَجَل: كثرة التوبيخ والإهانة والتعنيف أمام الآخرين، مما يزرع الشعور بعدم الثقة بالنفس، والخجل من أن يلتقي بمن أُهين أمامهم؛ لأنه سيَشعُر بأنه يعير من قِبَلهم ولو كان ذلك غير موجود على الحقيقة، لكن بالنظر إلى شعور الابن، هذا هو الذي يحدث.

وقد يدفع إلى الخَجَل أسبابٌ لا علاقة لها بالوالدين، ككون الابن فقيرًا، أو مُنكَسِرًا لسبب أمرٍ ما، وهذا أمر قد لا يملك الوالد تغييره، لكن يستطيع التعامل معه كواقع موجود من خلال تعزيز الثقة بالنفس، وأنَّ هذا الأمر لم ينفردوا به دون الناس، وأنه يجب أن تكون النفس عظيمة لتستطيع مواجهة الآخرين.

وقد كانت تأتيني بعض الحالات التي تشعر بالخجل الشديد من لقاء الناس؛ لأن صاحبها قد ابتُلِيَ بمرض أو تَشَوهات؛ مما أدى إلى اعتزاله الآخرين، **فكنتُ أقول له**: ما دام أنك لا تملكُ تغييرًا لهذا الواقع، فلماذا تزيد على نفسك الضَّغط النفسي، عش حياتك طبيعيًّا، فلستَ الوحيد الذي ابتُلِي بمثل ذلك، وهذا مما يُسَلِّيك، ربما لم أُغَيِّر واقعه؛ ولكنني على الأقل

حاولت أن أُساعده نفسيًّا لتجاوز مرحلة القَلَق التي يعيشها.

لذلك قد تتنوع أساليب العلاج لهذه الظاهرة، لكن يمكن إجمالها بعبارة واحدة: «دعه ينشأ ويعيش طبيعيًّا»، فلا تفرض عليه قُيودًا إلى حدِّ المُبَالغة، دعه يختلط بالآخرين بضوابط، ويكوِّن الصَّداقات مع الأقران، لا تُكثر انتقاده أمام الآخرين وبالذات الناس الذين يحبهم ويحبونه، لا تقارنه بالآخرين وتعنِّفه أنْ لم يكن مثلهم، هيِّئ له الدفءَ العاطفي الذي يُشعره بالأمن، لا تحاول أن تجعله صورة مكررة منك، دعه يتصرف بتلقائية لكن وجهه لفعل الصواب وترك الخطأ، ولا يكن ذلك التوجيه بمرأى الآخرين، دعه يعتمد على نفسه في ما يطيقه من شؤونه الخاصة، **عَالِج ما لَدَيه من الخَجَل بدون إطلاق الأوصاف المؤذية أمام النَّاس**: «أنت ضعيف، أنت جبان» أمام الناس، فأنت تريد معالجة ابنك وليس كسره!

فالبعض من شدة ما هو حزين على وَضع ابنه، تتحول هذه العاطفة إلى أسلوب هُجُومي غير مُبَرَّر، وهو لا يقصد أذيَّتَهُ، بل يريد مساعدته، لكن سلك طريقة عكسيَّة.

وأهم ما يُمكِنُ اختصاره فِي هذا الباب: أنه من المهم

والضروري معرفة السبب الدافع إلى هذا الخَجَل، حتى يمكن علاجه بطريقة تُنَاسبه، وقد يكون العلاج بأسلوب عمليٍّ بدون كلام أو تنظير، فيؤتي ثماره سريعًا، ويتحقق من خلاله النجاح بأقصر الطرق وأسَهلهَا.

كما أنَّ التعرف على الخَجل في مرحلة مبكرة من عمر الطفل، والتعامل معه بصورة تربوية صحيحة أمر بالغ الأهمية؛ لأنَّ صفة الخجل تأخذ بالازدياد والنمو مع تقدُّم الطفل في السِّنِّ، لتَصِلَ ذروتها عند بُلوغه سن الشباب، وتصبح ظاهرة نفسية تَنم عن الطبع الخَامل[1].

(١) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص٩٩).

المراهقة

رغم معرفتنا بالصُّعوبات التي تنشأ في مرحلة المراهقة في عملية تربية الطفل، يجب ألَّا تُقعِدَنا عن التدخل الفعال لتجاوزها، وألَّا تدفعنا للاستسلام التام لتلك الفظاظة الشديدة، والانفلات الجامح الذي يمكن أن يرافق سنوات المراهقة؛ لأنَّ هذه الصعوبات ليست شيئًا مُحَتمًا، فقد تمر فترة المراهقة دون ظهورها مطلقًا، **فقَد أفادَت الدراسَات أن الآلاف بل المَلايين من الأُسَر، لم تُلَاقِ أية صعوبة تُذكر في تربية الطفل أثناء مروره بسِنِّ المُرَاهقة،** فهي لم تعرف المشاحنات وسوء التفاهم والاغتراب والتباعد في التفكير والسلوك بين أفرادها، وتَمُر السنون هادئة بالرغم من أنَّ الابنة أو الابن قد أتمَّ الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من العمر[1]،

(١) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص١٠٤-١٠٥).

ومع ذلك يجب أن نتعامَلَ مع هذه المَرحَلة كحالة لها ما يُنَاسبها من التصرُّفات.

في مرحلة المُراهقة يعيش الابن عالمًا مختلفًا، وتغيرات حياتية، ويُلاحظ عليه تغير في السلوك والتصرفات، ولا يُقصد بذلك أن يكون ذا سلوك سيئ، ولكن من جانبِ تغير نظرته إلى الأحداث من حوله، وطريقة استجابته لما يعرض له.

ففي فترة المُرَاهقة يُخيَّل للمراهق أنه مكتمل الشخصية، وأنه قد عرف كل شيء، وأدرك ما يجري من حوله من الوقائع، وأصبح ذا قدرة على التعامل مع الناس من حوله، وبدأ يملك إصدار القرار فيما يريد وما لا يُريد، وقد يشعر أنه لا يجب أن يكون لأحد سلطان عليه، وفي خضمِّ هذه الأفكار والتغيرات لابد أن نوفِّر له الأمان العاطفي والواقعي حتى ننقله إلى المرفأ الآمن؛ ليقيننا أن هذه النتائج التي توصل إليها المراهق هي مجرد قرارات عاطفية، **ومِن أجلِ أن نُقنِعَهُ بالصَّواب لابُد أن نتَميَّز فِي طريقة عملنا معه لنَنجَحَ فِي بقاء جذور العَلاقة مَتينَة.**

لابدَّ أن نتصور أن المراهق في هذه المرحلة يميل إلى تحقيق ذاته وإثبات وجوده، ومع الأسف فإنَّ كثيرًا ممن يُحيطُون به من الآباء والأمهات والمدرسين والإخوة الكبار، لا يأبَهُون إلى شعوره بالرغبة في تحقيق ذاته، من خلال استغلال طاقاته، ومنحه المسؤولية والأعمال المناسبة، ويتَّجه بعض الكبار إلى عدم الثقة بالمُرَاهقين والمراهقات وعدم الاطمئنان إلى ما يتَوَلَّونه من أعمال، ويشعرونهم بذلك بطرق مباشرة أو غير مباشرة، من خلال منعهم من تحمل المسؤولية، وصرفهم إلى أعمال هامشيَّة، والاستغنَاء عن تكليفهم بأعمال ومهمات تحقق ذاتيَّتهم، وتشعرهم بالمسؤولية وبشيء من الاستقلالية، وتبرز شخصياتهم، وتصقل قُدراتهم الاجتماعية.

ومع الأسف؛ فإن مجتمعاتنا تطيل فترة الطفولة والاعتماد على الغير حتى ينتهي الفرد من سنِّ الجامعة في الثالثة والعشرين مثلًا، وهو في كل ذلك تابع للغير وعالة على المجتمع ماليًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا، لا عمَلَ له سوى الاستقبال فقط[1].

(١) انظر: «كيف تربي أبناءك»، د. حسان شمسي باشا (ص١٥٣).

حين نعرف أن مَرحَلة المُرَاهقة مرحلة تغيير، من الضروري أن نعلم كيف نتعامل معها، فالمُرَاهق في هذه المرحلة قد لا يستطيع التحكُّم في انفعالاته، وقد تكون قائمة على رُدود الأفعال، فإذا أحبَّ؛ أسرف وبالغ وتعلق بمن يحبه، وإذا أعجب بشخص أو شيء آخر؛ بَالِغ في مدحه وحاول أن يجمع الناس على رأيه فيه، فالمُرَاهق يبالغ في حبه عندما يحب، وفي كَرَاهيته عندما يكره.

وتجده بعد أن كان مُستسلمًا مُطيعًا في طفولته، بدأ يميل إلى الاستقلالية، ومحاولة الانفراد في اتخاذ القرارات، فقد لا يتقبل رأي الآخرين، ويرفض توجيهاتهم ونصائحهم، فلا تستغرب أن ترى المراهق في هذه المرحلة يناقش الأمور مع والديه ومن حوله، نَظرًا لما اعتراه من التغيُّر الطبيعي[1].

لذلك من المُهِم الإشارةُ إلى أنَّ التعامُلَ والحوار مع المُرَاهِق في هذه المرحلة، يجب أن يكون مختلفًا عما كان في مرحلة الطفولة، فالطفل بالرغم من عناده هو بالتالي يتقبل

(١) انظر: «كيف تربي أبناءك» (ص١٥٢).

الأوامر والنواهي؛ لشعوره بالحاجة والضعف أمام والديه، أما المراهق فينبغي أن يترك له نوع من الحرية؛ وتكون الأوامر والطلبات بصيغة العرض، وإن كان الأمر بالتالي يجب أن يكون محسومًا من قِبَلك وبلا تردد، **لكن المقصود: أن تُشبِعَ رغبتَهُ الجامحَة نحو الاستقلالية والانفراد وتحقيق الذات،** فيقول في نفسه: «**قد أخَذُوا برأيي، استشاروني بهذا الأمر، كان لي حَق الخيار**».

ولذلك كان من المناسب أن يكون الحوار بطريقة: «ما رأيك لو فعلنا كذا؟»، «نعم، ما قلته أنت له وجه كبير من الصواب، لكني أرى أن من المناسب أن نصنع كذا».

وعلى كُلِّ حال: يجب أن تُشعِر المُرَاهق أن من حقه أن يختار ويقرر، وأنَّ رأيه محترمٌ ولو لم نأخذ به، فإن هذه الطريقة تضعف شعوره وميله للعناد والرفض، كما في الوقت ذاته نبحث عن سُبل مُعِينَة للتقرب من هذا المخلوق الجامح، وهذا الطائر المزهو بنفسه، الذي شعر لتَوِّه بقوة جناحيه المكسوين بالريش الغَض، وهنا، كما في أيِّ موقفِ نزاع آخر،

لا يمكن للقسوة والإهانة تقديم أية فائدة تُذكر، **إذ ينبغي في هذه الحالة أيضًا التعامل معه بعطف وحنان واهتمام كما في مراحل عمر الطفل السابقة.**

ولا يتمَثَّل العطف والحنان بشراء الثياب النفيسة، وإنما بإظهار الاهتمام والرعاية التي يتطلبها الطفل.

وتشمل هذه الرعاية: مساعدته في اختيار طريقِ حياته الصحيح في الوقت المناسب؛ كي تتولَّدَ في داخله الاهتمامات التي تدفعه لتكرِيس ذاته كشخصية مميزة[1].

وقد تُلاحظ أن المُرَاهق يكثر النَّقدَ لكل ما حوله، ويحاول أن يعيد ترتيب المنزل والأحداث على حسب فهمه وتصوره، فلابدَّ أن تكون المعاملة محكمة، لا نسمح له أن يُرضِخ من حوله على حسب تصوره وطريقته؛ بل وحتى سلوكياته الخاصة، لكن في المُقَابل نعطيه الشعور بأنه صاحبُ قرار، وذلك عن طريق المشاورة والحوار، لذلك من الجميل أن تكون الأوامر على طريقة العرض كما أسلفنا.

---

(١) انظر: «تربية مشاعر الأطفال في الأسرة» (ص١٠٥).

ولا يَفُوتنا أن نُشير إلى أننا -ومع تقريرنا بأن المراهق سيمر بمرحلة تغير في السلوك- لابد كذلك أن يتغير من حوله في طريقة المُعَامَلة معه، وإلا فلن ينجح في كسب المراهق ووضعه على طريق الصَّواب، ولذلك لو تأملت في أحوال المتقدمين من الآباء، تجد أنه بالرغم من أنهم لم يعرفوا هذه القواعد التربوية كعلم مُنَظَّم، إلا أنهم كانوا ناجحين في طريقة التعامل مع أبنائهم، فيعملون مع كل مرحلة بما يناسبها وهم في غاية الثبات والثقة، ولعل ما استفادوه من خبرة الحياة وتجاربها أغناهم عن كثير من الدراسات المنظمة.

وفي خِضَم هذه المتغيرات التي تَمُر بالمُرَاهق: يجب أن نوفر له الحماية؛ لمعرفتنا أنه قد يقدم على بعض السلوكيات من باب رَدَّة الفعل، فيجب أن نتعامل معه بثبات في المواقف، فلا تجعله يقف أمام تصرُّفاتك متذبذبًا، فتمنعه من شيء ثم تأذن له به، أو العكس، بل تمهل بإصدار قرارك حتى إذا أصدرته لا تتراجع عنه، وافعل ما تراه مناسبًا، فليس معنى أن تعطيه المجال والحُرية في الحوار، أن تعطيه حرية القرار، فقد يكون ما أراده خَطَأ.

كما يجب في هذه المرحلة أن نُؤَمِّن الابن من أصحاب السوء، وذلك عن طريق صرفه عنهم بطريقة مناسبة، كإشغاله في هواية محببة إليه، أو عمل يستهويه، فقد يكون الابن يحب السباحة أو الخيل أو عملًا تجاريًّا خفيفًا، وترى أنت أنه سيصرفه عن أصحاب السوء؛ فافتح له مجالًا نحو ما يحبه حتى ينصرف عن صاحب السوء، فمع الأسف أنَّ كثيرًا من الناس لا يعرف مدى تأثير الصاحب السيئ، ويظن أنَّ ما يذكره العلماء والمختصون من التحذير من أصحاب السوء نوع الكلام المستهلك أو المبالغ فيه، **ولكن الحقيقة أن الصاحب يسحب صاحبه نحو سلوكياته، ولو تماسك في بداية أمره فسينهار في النهاية؛ لأنَّه كما قال أهل الأدب: «الصَّاحب سَاحب»!**

ولا يلزم أن يكون الصاحب السيئ مُرَوج مخدرات، أو يشرب الخمر، فقد يكون فاشلًا دراسيًّا، أو مرفوضًا اجتماعيًّا لسلوكياته المشينة، فيجب أن نوفِّر لأبنائنا الحماية من هؤلاء.

كما أنَّ من الوسَائل التي توفر الحماية من هذا الصنف إلى حد بعيد: أن نحذر أبناءنا منهم قبل أن يختلطوا بهم، ونحذِّرهم من الأوصاف لا الأشخاص، ونذكر لهم القصص التي تبيِّن

دور صاحب السوء في إفساد حياة صاحبه، ولن يتمكن الوالد من ذلك إلا إذا كان قويَّ الصلة بابنه، وكان بينهما من الألفة والتفاهم ما يجعله يتعامل معه كصديق.

ومن الضَّرُوري جدًّا أن أقول: ربما في كثير من الأحيان -ولكي توفر الحماية لابنك أو ابنتك- تضطر أن تصرف وقتك من أجله، فلا تبخل بذلك، وقد تمنع نفسك من بعض الملذَّات المباحة من أجل أن توفر لهم الحماية، فلا تحزن لذلك، وارجُ أجر ذلك عند الله، وغدًا إذا رأيت ثمرة عملك العظيم؛ هان عليك كلُّ تَعَب، وسَلَّاك عمَّا فَاتَك، وامتلأتَ فَخْرًا -بعد حمد الله والإقرار بمِنَّتِهِ عليك- أنك نجحت، في حين فشل كثير من الناس في حفظ أبنائهم.

كُن قريبًا من ابنك المراهق؛ ليشعر أنك صديق، حتى لا يحتاج إلى أن يبث لغيرك ما يحزنه ويؤلمه، فإنها كلما قويت الصلة، ووضعت نفسك مكان الصديق، علمتَ كيف تسمعه كصديق وليس كـأب، فعلى الرغم من أنه لا أرحم من الأب والأم بالنسبة للأبناء، فكثيرًا ما يميلون نحو الصديق؛ لأن هناك شعورًا ترسخ في داخلهم أنهم مع الصديق يقولون

كل شيء بلا حياء ولا حواجز، ويستحون من ذكر ذلك للوالدين، فإذا استمعت له كصديق، فجميل أن تخرج من ثوب الوالدين مؤقتًا، فلا تزجر ولا تنهر، ولا تعش في مرحلة الأبوة الناضجة، بل انزل إلى مستواه العقلي لتفهمه.

خذه إلى هواياته، سافر معه، وتعامل معه كصديق في سِنِّه، دعه يَلهُو ويلعب ما دام أنه لم يترك ما أوجبه الله عليه، دعه يُحَاور ويناقش ويتكلم بكل أريحيَّة كصديق.

ولذلك أقول: إذا أرَدتَ أن تعرف قيمة النجاح التربوي، فإنه يتمثل في مَحبَّة ابنك لمُجَالستك ومصاحبتك، فإذا رأيت الابن يحب الذهاب مع أبيه، ويصاحبه في مشاويره، فهذا من أعظم أسباب النجاح؛ لأنه دليل على الأنس به، وأنه لا يستثقله، وأن الوالد قد استطاع أن يُلغِيَ جميع الحواجز حتى وصل إلى قلب ابنه، وبالتالي هو توفيق من الله ومَحْض امتنان منه، فلو أن الله لم يُسَخر قلبه ويزينه له لم يَصِل إلى ذلك.

الخاتمة

كان هذا الكتاب كغيره من الكتب، لا أدَّعي أنه تفرد بشيء من دونها، بل هو ثمرةُ الاطلاع على ما كتبه أهل الشأن والاختصاص، أضفت إليه التجارب الواقعية، **وقَصْدي من ورائه**: المساهمة بإيجاد المشروع التربوي الناجح من خلال الأبناء، الذين هم فلذَات الأكبَاد وزِينَة الحياة الدنيا.

ومهما ذكرنا من الأسباب التي تحقق النجاح، من الضروري جدًّا أن نذكِّر أن أساس نجاح التربية هو: «**توفيق الله** عَزَّوَجَلَّ»، فعلى المرء أن يلزم الدعاء لله عَزَّوَجَلَّ بأن يصلح أبناءه، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤]، ولا يعتمد على الأسس والقواعد التربوية فقط، فالأسباب كالبذرة التي تُزرع في أرضٍ ما، لن تنمو ولن تؤتي ثمارها إلا أن يشاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

ذلك، فمن الخطأ أن يعتمد المرء على الأسباب مع غَفلَتِهِ عن الدُّعاء لله رب العالمين، فإن العبد لا يزالُ مُحتَاجًا إلى خالقه في جميع أموره وشؤون حياته، **ولن يتقَدَّم ويحقق نجَاحًا أو يَصِل إلى غاية إلا إذا وفَّقَهُ الله وأعانَهُ.**

فالواجبُ: طلب الإعانة من الله، والافتقار إليه، والاطِّراح بين يديه، خصوصًا في هذا الأمر العظيم المتعلق بالأبناء، وفي هذا الوقت الذي اختلطت فيه الأمور، وكثرت أسباب الانحراف عن السلوك الحسن، واجتهدت القوى المنحرفة غاية الاجتهاد لإفساد النَّشء، والانفراد به، وتوجيهه إلى حيث تُريد، فإذا بذلت أسباب التربية؛ فلا تغفل عن الدعاء وتعلق القلب بالله، فالخير كله في يديه.

ولابدَّ أن يُعرَف أنه بالرغم من محاولة إيجاد القواعد التي تكون سببًا في نجاح العملية التربوية، والاجتهاد في تطبيقها، تبقى هذه المسألة خاضعة لتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ، وأن المرء لا يستغني عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ طرفة عين، فقد اجتهد علماء التربية والمختصون بعلم نفس الطفل بتدوين القواعد، وإقامة وِرَش

العمل، للحصول على الكمال، لكن بنقل هذه التجارب إلى أرض الواقع، ربما تلقى نجاحًا لدى بعض الأفراد، وتفشل في المجتمعات الأخرى، وهذا ما يقرره علماء هذا الفن، التماسًا للعذر لمن اجتهد بتطبيق هذه القواعد والتجارب إلا أنه أخفق في تحصيل الثمرات، فلا يعني ذلك أنه فشل في تربيته؛ لأنَّ الناس يختلفون في التلقي، وربما ينجح في مكان آخر، فاستثمار هذه القواعد بحسب المتلقي والأرض التي قام عليها هذا البناء.

وهذا الذي قرره التربويون وعلماء النفس والمختصون هو عين ما نبَّهنا عليه، وهو أن مردَّ الأمر حقيقة إلى الله، فمنه يُلتمس التوفيق، وإليه يتوجه المرء بالدعاء أن يصلح الله من تحت يده، وأن يُوفِّقه في دلالتهم إلى ما فيه نجاح حياتهم، واستقامة سلوكهم على ما يكون فيه التميُّز والبروز بالمظهر اللائق الذي يسعى إليه كل ناجح.

فلا يَعني تطبيقُ قواعد هذا الكتاب وغيره: أنه لن يَطرَأ على من أخذ بها بعض المُنَغصات خلال العملية التربوية،

لكن هذه من القَوَاعد المُسَاعدة إلى حدٍّ بعيد، والاجتهاد بها وإن لم يؤدِّ إلى حصَاد الثمرات كاملة، فعلى الأقل يؤدي إلى السلامة في جزء كبير خلال هذه المراحل التربوية، لأنه مما ينبغي علينا أن نُفَكِّر في أنفسنا على أننا كائنات إنسانية، لها قدرة محدودة وطاقة مستنفدة، ومسألة الحياة والعمل مع الأولاد، عملية مُتَطلبة ومُتعبة، فإنها تتطلب قلبًا وذكاء وقدرة على التحمل، فإذا لم نستطع العيش وفق توقعاتنا -وغالبًا لا نستطيع-؛ فَلْنَكُن لَطِيفِين مع أنفسنا كما نحن مع أبنائنا، فإذا كان أولادنا يحتاجون ألف فرصةٍ وفرصةً فوقها، فَلْنُعْطِ أنفُسَنَا ألف فرصةٍ واثنين فوقها[1].

وينبغي على الوالد في خِضَمِّ هذه الأحداث والمجريات، وبذله الجهد والوقت لتَربية أولاده، ألَّا يَنسَى نفسه، ويوقِفَ حياته كلها في محطة واحدَة لا يريد أن ينتقل عنها، بل لابدَّ أن يتذكر أنه كما استقَلَّ هو عن والديه في حياته الخاصة، فمن الطبيعي أن يَكُون للأبناء فيما بعد حياتهم الخاصة، **وهذَا مما**

(١) انظر: «كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك» (ص٣٢٦).

يَقُودُنا إلى قَاعدَة لا يَنبَغي أن يُغفل عنها: ابذل لأبنَائك ما استَطعَت ممَّا يكون فيه صلاح أحوالهم، لَكن في المُقَابل لا تنسَ نفسك، حتى إذا رَجَعت إليها حين حَاجَتِكَ إليها لم تبْقَ وحيدًا.

فهرس الموضوعات

مقدمة المؤلف ٥

بين يَدَي هذا الكتاب ٨

لماذا نهتم بتربية الأبناء؟ ١٨

تربية الأبناء ..واقع لا أمنيات ٢٧

أسس بناء الشخصية ٣٣

الطفل في حال النشأة ٣٦

الحب الفطري والحب الْمُكتسب ٥٠

أثر الحب والحنان في التربية ٥٢

الأمان العاطفي ٦٦

فهم المشاعر ٧٧

دراسة نفسية الابن ٨٦

كن صاحبًا خفيف الظل ٩١
الابن الطبيعي ٩٨
الابن الأول ١٠١
النفقة على الأبناء ١٠٣
العدل بين الأبناء ١١٢
تأديب الابن ١٢٣
اللطف بوابة القلوب ١٢٩
التركيز على الإيجابيات وتشجيعها ١٣٥
التكليف بالمسؤوليات ١٣٨
التكليف بعوض ١٤٨
بين الحزم والهدوء ١٥١
الهجوم اللفظي ١٦٠
المبالغة في المدح ١٧١
الإسراف في الدلال ١٧٦
لا تقطع وعدًا ولا تعطيه ١٨٠
حديث الطفل ١٨٢

الحديث مع الآخرين ١٩٢
الطفل الغضبان ١٩٤
صداقات الابن ٢٠٥
الأطفال واللعب ٢٠٩
بكاء الأطفال ٢١٥
مشاجرات الأطفال ٢٢٥
النزهة ٢٣٠
دور الأم في صداقة الابن لأبيه ٢٣٥
خلاف الوالدين ٢٣٧
الخصومات بين الوالدين ٢٤٠
التربية على الصدق ٢٤٤
خجل الأبناء ٢٥٤
المراهقة ٢٦٢
الخاتمة ٢٧٢
فهرس الموضوعات ٢٧٧

*** صدر للمؤلف:**

- كلمات من واقع الحياة.

- ولْيَسعْك بيتُك «من أجل حياة زوجية هانئة».

- نزهةُ الخاطر «جولةٌ في رياض الأدب».

- ضحيةُ معاكسة.

- وصايا للخطيب.

- بقلمي.

- مِنبريات.

- بدايةُ الفقيه.

- السيرةُ النبويةُ .. من الولادةِ إلى الوفاة.

- لم تكتمل.

- التربيةُ العاطفيةُ للأبناء.

*** تطلب جميع المؤلفات من: دار الخزانة**

الكويت ت: ٩٠٩٠٩٢١١ - ٥٥٩٥٧١٠٣

*** عنوان المؤلف**

www.salemalajmi.com

Email:alajmi250@hotmail.com

@dr_salem_alajmi